جامعة سعد دحلب بالبليدة

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة ماجستير

مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث اللغوية

من طرف

أمال ــ سريسي

أمام اللجنة المشكلة من

بوعبد الله لعبيدي	**أستاذ محاضر-أ- جامعة البليدة**	**رئيســـا**
ساســـي عمار	**أستاذ التعليم العالي، جامعة البليدة**	**مشرفا ومقررا**
تريكي مبارك	**أستاذ محاضر-أ- جامعة المدية**	**مناقشـــا**
صدّار نور الدين	**أستاذ محاضر-أ-، جامعة معسكر**	**مناقشـــا**

البليدة، مارس 2012

شكـــر

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، حمدًا متواصلاً لجليل نعمه، وموفور خيراته ومنّه و اللهم صلي وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى أزواجه وذريّته، وصحابته ومتبعيه إلى يوم الدّين وسلّم تسليما كثيرا أما بعد:

لأنّه أثّر في نفسي كثيرا، ومنح لي عطفا وفيرا، وبيّن لي سمة النّجاح في الحياة وعنوان نيل المكانة والمفازة، ولأنه علمنّي بشخصيته حبّ ركوب الصّعوبات والصّبر على العثرات والإشرئباب إلى الطّموحات... من أجل ذلك كلّه أشكر أستاذي الكريم ومعلمّي الدّكتور: "عمّار ساسي" على تفضله بقبول الإشراف على الرّسالة أولا وعلى ما نفعني به من علم وتوجيه ومتابعة للعمل مُذْ أن كان فكرة إلى أن رأى النُّور...

وإذ أُقدّم هذا البحث أسأل الله العظيم أن يجعله مفتاحا لمزيد من البحث ونشر العلم بين النّاس، ولا يفوتني في هذا المقام أن أتّقدم بالشّكر والتّقدير أيضا إلى كل من أمدني بيد العون وساعدني من قريب أو من بعيد في انجاز هذا العمل حتى آل إلى ما هو عليه...

كما أرفع شكري وامتناني للأساتذة المناقشين على تكرمهم بقبول مناقشة الرّسالة، وإبدائهم لما عرض لهم من ملاحظات تزيد من قيمة البحث، وأسأل المولى الكريم أن ينفعنا بهم...فإلى كل هؤلاء وأولئك تحية تقدير وعرفان...

ملخـص

إن الظاهرة اللغوية – في منظورنا – تشبه بعض الأشكال الموجودة في الطبيعة إنها كالمكعب المتعدد الزوايا و الأبعاد لا يكفي لوصفه أن يسلط علية الضوء من نور مصباح واحد يضيء سطحا واحدا ويخفي أسطحه الأخرى . وهكذا تعددت التعاريف التي تناولت الظاهرة اللغوية من منهج إلى آخر

إن الهدف الذي سطرناه من خلال هذا البحث هو الانطلاق في عرض كل منهج من المناهج اللغوية و كشف الزاوية التي نظر بواسطتها إلى اللغة حتى نصل في الأخير إلى تعريف يحيط بالظاهرة اللغوية من كل الزوايا و الأبعاد .

الحقيقة أن البحث التاريخي الطولي أو البحث في الأصالة و الفرعية لم يستطع الكشف عن أسرار الظاهرة اللغوية باعتباره نظر إليها على أنها زمان فحسب ، كما تعامل مع نصوص قديمة في شكلها المكتوب لا المنطوق .

أما عن المناهج اللغوية الحديثة فقد اختلفت بدورها في تعريف اللغة باختلاف زوايا النظر .لقد عرف المنهج الوصفي اللغة بأنها بنية أو نظام ، وأن هذه البنية لكي تدرس لا بد أن تحلل إلى مكوناتها الجزئية وهذا كله بهدف الكشف عن القوانين العامة للنظام اللغوي .

أما المنهج الوظيفي فقد اعتبر اللغة وسيلة من وسائل التبليغ و التواصل بين الأفراد ،هي تلك الوسيلة التي استطاع الإنسان بواسطتها تحليل خبراته إلى وحدات ذات دلالة وشكل صوتي هي المونيمات ، تقطع بدورها إلى وحدات متتالية هي الفونيمات .

ولكنه في المقابل ظهر اتجاه آخر بقيادة نوام تشو مسكي ، هذا الأخير نظر إلى اللغة على أنها نتاج عقلي خاص بالجنس البشري ومكون من مكونات العقل الإنساني ، وأن الإنسان مزود بقدرة فطرية تمكنه من استعمال اللغة و الإبداع فيها .

أما المنهج السيميائي فقد اعتبر اللغة نظام من العلامات اللغوية – دال /مدلول – تعبر عن أفكار داخل الحياة الاجتماعية في إطار صيرورة تواصلية قصدية .في حين اعتبر المنهج التداولي اللغة أنها تمارس في ظل مسار اتصالي تداولي مضبوط بقواعد و قوانين ، يشمل كل من المتكلم و المخاطَب وما دار بينهما من حديث أو إشارات ملامحية أو يدوية .

ونشير في الأخير أن اللغة من أكثر ظواهر النشاط الإنساني تعقيدا ، إنها جزء من كياننا السيكولوجي الروحي ، هي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد ، الحقيقة أنها ظاهرة نفسية اجتماعية ثقافية مكتسبة لا ظاهرة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من وحدات صوتية لغوية ،ومن قواعد ضمنية تحكم تأليف الوحدات الظاهرة في الكلام الفعلي ، وبهذا النظام الترميزي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتواصل مع الغير في ظل نشاط اتصالي تداولي .

قائمة الأشكال

الرقم		الصفحة
01	يوضح محتوى العلامة اللغوية	86
02	الاتجاهات السيميائية المعاصرة	89
03	يبرز الاتجاهات السيميائية المعاصرة	90

الفهرس

ملخص

الشكر

قائمة الأشكال

الفهرس

مقدمة

1 .مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث قديما 12

1.1. نشأة اللغة الإنسانية وعلاقتها ببقية العلوم لأخرى..... 12

1.1.1. نشأة اللغة الإنسانية..... 12

.2.1.1. ارتباط الظاهرة اللغوية ببقية العلوم الأخرى..... 19

2.1. في ماهية المنهج..... 22

1.2.1. في مفهوم المنهج..... 22

.2.2.1. في علاقات المنهج..... 23

1.2.2.1. بين المنهج والنظرية..... 23

2.2.2.1.بين المنهج والمنهجية..... 23

3.1.مفهوم اللغة في ضوء المنهج التاريخي..... 24

1.3.1. مفهوم المنهج التاريخي واستخدامه في المجال المعجمي..... 24

1.1.3.1. مفهوم المنهج التاريخي..... 24

2.1.3.1. استخدامه في المجال المعجمي..... 25

2.3.1. خطوات المنهج التاريخي..... 27

3.3.1. مفهوم اللغة في ضوء المنهج التاريخي..... 29
4.3.1.نقد المنهج التاريخي..... 32
4.1. مفهوم اللغة في ضوء المنهج المقارن..... 32
1.4.1. المنهج المقارن، ودوافع ظهوره..... 32
2.4.1. مفهوم المنهج المقارن، وأهم نتائجه..... 34
3.4.1. مفهوم اللغة في ضوء المنهج المقارن..... 35
4.4.1. نقد المنهج المقارن..... 36
2. مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث حديثا 38
1.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج البنيوي الوصفي..... 39
1.1.2.المدرسة البنيوية وأهم اتجاهاتها..... 39
1.1.1.2. البنيوية الوصفية..... 39
2.1.1.2. الاتجاهات اللسانية البنيوية..... 45
2.1.2. ماهية المنهج البنيوي الوصفي..... 49
1.2.1.2 :مفهوم المنهج البنيوي الوصفي..... 49
2.2.1.2. مميزات المنهج الوصفي ومفارقاته للمناهج الأخرى..... 50
3.2.1.2: في خطوات المنهج البنيوي الوصفي..... 53
3.1.2. :مفهوم اللغة في ضوء المنهج البنيوي الوصفي..... 55
4.1.2: نقد المنهج البنيوي الوصفي..... 56
2.2.: مفهوم اللغة في ضوء المنهج الإحصائي..... 57
1.2.2. نشأة علم الإحصاء وتطوره..... 57
2.2.2. مفهوم المنهج الإحصائي: خطواته وأهميته..... 58
1.2.2.2مفهوم الإحصاء..... 58

2.2.2.2مفهوم المنهج الإحصائي..... 59
3.2.2.2خطوات المنهج الإحصائي..... 60
4.2.2.2أهمية المنهج الإحصائي..... 61
3.2.2مفهوم اللغة في ضوء المنهج الإحصائي..... 63
4.2.2 نقد المنهج الإحصائي..... 64
3.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج الوظيفي..... 64
1.3.2. نظرية مارتيني الفونولوجية الوظيفية..... 64
1.1.3.2.نظرية مارتيني الفونولوجية..... 64
2.1.3.2المذهب الوظيفي لمارتيني..... 65
2.3.2. أسس المنهج الوظيفي..... 66
3.3.2. مبادئ التحليل الوظيفي..... 69
4.3.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج الوظيفي..... 70
5.3.2. نقد المنهج الوظيفي..... 71
4.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج التوليدي التحويلي..... 71
1.4.2. نشأة المنهج التوليدي التحويلي ودوافع ظهوره..... 71
2.4.2. مفهوم المنهج التوليدي التحويلي، وأهم أسسه ومبادئه..... 73
1.2.4.2. مفهوم المنهج التوليدي التحويلي..... 73
2.2.4.2.أهم أسس المنهج التوليدي التحويلي..... 75
3.4.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج التوليدي التحويلي..... 79
4.4.2. نقد المنهج التوليدي التحويلي..... 80
5.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج السيميائي..... 81
1.5.2. السميائية: المفهوم وإشكالية المصطلح..... 81
1.1.5.2مصطلح السيميائية :تاريخه و ومفهومه..... 81

2.1.5.2إشكالية المصطلح 84
2.5.2المدارس السيمائية واتجاهاتها 85
1.2.5.2. المدارس السيميائية 85
2.2.5.2. الاتجاهات السيميائية 87
3.5.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج السيميائي 91
6.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي 92
1.6.2. المنشأ الفلسفي للتداولية اللسانية ومفهومها 92
1.1.6.2.المنشأ الفلسفي للتداولية 92
2.1.6.2. مفهوم اللسانيات التداولية 95
2.6.2. تطور اللسانيات التداولية 96
3.6.2. التداولية وعلاقتها بالتخصصات الأخرى 98
4.6.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي 100
1.4.6.2.:مفهوم المنهج التداولي 100
2.4.6.2 مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي 100
خاتمة 102
قائمة المراجع 105

مقدمة

إن اختيار موضوع مذكرة ماجستير ليس بالأمر الهين ، إذ التسرع في الاستقرار على عنوان المذكرة كثيرًا ما يكون عامل هدم لها وعادة ما يدفع الباحث إلى هجرها بل ربما إلى هجر البحث العلمي كله . و انطلاقًا من المسلمة القائلة أنه على طالب الدراسات العليا أن يختار و يرغب بالبحث في موضوع يستطيع من خلاله معالجة قضية من القضايا اللغوية الجديدة ، التي تثري البحث العلمي و تفتح آفاقا جديدة كانت موصدة من قبل ، وقع اختياري على موضوع لطالما راودني أمل كبير في البحث فيه ثم نما هذا الأمل ليتحول إلى رغبة قوية و ملحة إنه موضوع عنونته بـ "مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث اللغوية".

الحقيقة أنه بتعدد المناهج التي سار عليها الباحثون في دراساتهم اللغوية ، و انطلاقا من أن اللغة هي كالكعبة المتعددة الزوايا ، أو كالجسم الذي تتعاور المناهج اللغوية للكشف عن حقيقته ، فما قد يراه الباحث من خلال منهج معين ، يختلف عما قد يراه من جانب آخر من خلال منهج آخر ، تعددت مفاهيم اللغة وراح كل منهج يسلط الضوء عليها من نور مصباح واحد يضيء سطحا واحدًا و يخفي عندئذ أسطحه الأخرى . وهكذا صرنا نحصي كمًا هائلا من التعاريف اللغوية التي يقف الباحث أمامها حائرا مترددا لا يعلم أيأخذ بهذا التعريف أو ذاك . و رغم أهمية البحث في هذا الموضوع إلا أن التطرق لدراسته لم يكن موجودا. لذلك كله فإنني تجشمت عناء البحث ، وكلي عزم و رغبة في الوصول إلى تعريف أحسبه شاملاً و جامعا للغة ، يسلط على أبعادها أضواء الناهج المتعددة .

وحتى أصل إلى هدفي هذا طرحت في البداية إشكالية كبرى تمثلت في : ما هو مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث اللغوية ؟، بالإضافة إلى عدة إشكاليات فرعية هي كالأتي: ما هو أصل اللغة ؟ وما هي علاقاتها ببقية العلوم الأخرى؟ ، ثم ما هو مفهوم المنهج ، وما الفرق بينه وبين النظرية و المنهجية ؟ ، وما هو مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث قديما؟، أي ما هو مفهومها في ضوء المنهج التاريخي و المقارن ؟ ، وكذلك ما هو مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث حديثا؟ ، أي ما هو مفهومها في ضوء المنهج البنيوي الوصفي ، و الإحصائي ، و الوظيفي ، و التوليدي التحويلي ، و السيميائي ، و التداولي ؟

هذه الأسئلة و أخرى أجاب عليها البحث في شكل فصلين .

تحدث الفصل الأول عن مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث قديما ، و انقسم إلى أربعة مباحث ، المبحث الأول : نشأة اللغة الإنسانية و علاقتها ببقية العلوم الأخرى وانقسم إلى مطلبين :المطلب الأول : نشأة اللغة ، و الثاني : علاقة اللغة ببقية العلوم الأخرى ، أما المبحث الثاني فكان في : ماهية المنهج ، وتكون من مطلبين : المطلب الأول في مفهوم المنهج ، و الثاني في علاقات المنهج . وفيما يخص المبحث الثالث ، فكان بعنوان : مفهوم اللغة في ضوء المنهج التاريخي ، وانقسم إلى أربعة مطالب ، المطلب الأول : مفهوم المنهج التاريخي واستخدامه في المجال المعجمي ، أما المطلب الثاني فكان في خطوات المنهج التاريخي ، و الثالث : مفهوم اللغة في ضوء المنهج التاريخي ، و الرابع: نقد المنهج التاريخي . أما المبحث الرابع ، فحمل عنوان :مفهوم اللغة في ضوء المنهج المقارن، وانقسم إلى أربعة مطالب : المطلب الأول : المنهج المقارن ، و دوافع ظهوره ، والثاني مفهوم المنهج المقارن ، وأهم نتائجه ، و الثالث مفهوم اللغة في ضوء المنهج المقارن، والرابع نقد المنهج المقارن .

أما عن الفصل الثاني من هذا البحث فخصص لدراسة ، مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث حديثًا ، و انقسم إلى ستة مباحث ، المبحث الأول : مفهوم اللغة في ضوء المنهج البنيوي الوصفي ، وانقسم بدوره إلى أربعة مطالب ، المطلب الأول : المدرسة البنيوية وأهم اتجاهاتها ، والثاني : ماهية المنهج

البنيوي الوصفي ، و الثالث: مفهوم اللغة في ضوء المنهج البنيوي الوصفي . و الرابع ، فخصص لعرض أهم الانتقادات التي وجهت لهذا المنهج . أما عن المبحث الثاني فقد عني بضبط مفهوم اللغة في ضوء المنهج الإحصائي ، وانقسم إلى أربعة مطالب ، خصص الأول للحديث عن نشأة علم الإحصاء و تطوره ، و الثاني: مفهوم المنهج الإحصائي : خطواته و أهميته ، أما الثالث فحمل عنوان : مفهوم اللغة في ضوء المنهج الإحصائي ، والرابع خصص لنقد هذا المنهج .أما المبحث الثالث من هذا الفصل فعنون بـ : مفهوم اللغة في ضوء المنهج الوظيفي ، وانقسم إلى خمسة مطالب كان الأول بعنوان : نظرية مارتني الفونولوجية الوظيفية ، والثاني: أسس المنهج الوظيفي ، و الثالث : مبادئ التحليل الوظيفي ، و الرابع : مفهوم اللغة في ضوء المنهج الوظيفي ، و الخامس خصص لنقد هذا المنهج . أما عن المبحث الرابع ، فقد خصص للحديث عن مفهوم اللغة في ضوء المنهج التوليدي التحويلي ، و انقسم إلى أربعة مطالب ، الأول : نشأة المنهج التوليدي التحويلي و دوافع ظهوره ، و الثاني : مفهوم المنهج التوليدي التحويلي و أهم أسسه و مبادئه ، و الثالث : مفهوم اللغة في ضوء المنهج التوليدي التحويلي ، و الرابع خصص لنقد هذا المنهج . وفيما يتعلق بآخر مبحث فقد عني بدراسة مفهوم اللغة في ضوء المنهج السيميائي ، الذي انقسم بدوره إلى أربعة مطالب ، رتبت على النحو التالي : مطلب الأول خصص للسيميائية : المفهوم و إشكالية المصطلح ، و الثاني ، عرض للمدارس السيميائية و أهم اتجاهاتها ، وثالث مطلب اندرج تحت عنوان " مفهوم اللغة في ضوء المنهج السيميائي" . أما عن المبحث السادس من هذا الفصل ، فقد اهتم بضبط مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي ، وبدوره انقسم إلى أربعة مطالب ، أما المطلب الأول فقد اهتم بدراسة المنشأ الفلسفي للتداولية اللسانية ، و مفهومها ، والثاني حمل عنوان " تطور اللسانيات التداولية" ، والثالث تطرق إلى التداولية علاقتها ببقية التخصصات الأخرى .أما عن المطلب الرابع و الأخير فعنون بـ : مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي

وذكرنا في خاتمة البحث ، أهم النتائج المتوصل إليها ، كما التزمنا في ذلك بتمهيد لكل فصل ، لتوضيح مدى ترابطها ، و أردفنا كل ذلك بالإجراءات العلمية المنهجية من فهارس و مراجع ، و مصادر اعتمدت في هذا البحث .وكان الاعتماد في كل ذلك على المنهج الوصفي ، الذي رأيناه مناسبا لمثل هذه الدراسة وموضوعها و مخططها و هدفها ، وذلك اعتمادا على آليات هذا المنهج(من استقراء و إحصاء ، و موازنة وتحليل واستنتاج)، التي التزمنا بها في معظم مباحث الدراسة وفصولها.

هذا وقد صادفتني أثناء انجازي لهذا البحث عدة صعوبات أستطيع إجمالها في شقين اثنين: تمثل الأول في صعوبة الموضوع، ذلك أنني سعيت من خلال هذا البحث إلى إيجاد تعريف شامل يحيط بالظاهرة اللغوية من كل الزوايا والأبعاد، رغم أنني أعلم أن صوغ تعريف علمي شامل للغة ليس بالأمر الهين كما قد يتبادر إلى الذهن، ذلك أن اللغة هي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد ، ضف إلى ذلك أنني أحاول إيجاد ذلك التعريف في ضوء مناهج البحث اللغوية ، ولكننا نعلم أن المناهج متعددة ومتشعبة يتطلب دراستها الوقت، ووفرة المصادر و المراجع . أما الشق الثاني من الصعوبة ، فتمثل في قلة المصادر و المراجع التي تخدم البحث، حيث أنني لم أجد القدر الكافي منها .

ورغم هذا ، فقد حاولت بقدر الإمكان والمستطاع أن استجمع كل المعلومات المتعلقة بموضوع بحثي من خلال ما وقع بين يدي من مصادر و مراجع ، حتى أصل إلى ضبط تعريف يسلط على الظاهرة اللغوية أضواء المناهج المتعددة من كل الزوايا والأبعاد.

هذا ولا أدعي الكمال فيما كتبت، والعصمة فيما بحثت و استوعبت فالكمال لله وحده و لكن أرجو أن يكون عملي هذا خدمة للسان العربي المبين أولا ، و للبحث العلمي ثانيا وحافزا لطلاب العلم في هذا العصر في أن يشحذوا أقلامهم ويحركوا هممهم وعزائمهم للبحث في هذا النوع من المواضيع.

واسأل الله العلي القدير أن يجعل عملي هذا في ميزان حسناتي و أن يتجاوز عن سيئاتي ، إنه نعم المولى

ونعم النصير و الحمد لله رب العالمين.

الفصل 1
مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث قديما

اللغة من أعرق مظاهر الحضارة الإنسانية، بل هي أصل الحضارة وصانعة الرقي والتقدم، فهي تؤلف الحد الفاصل بين شعب وشعب، وبين أمة وأمة، بل بين حضارة وحضارة، وهي أيضا قوام الحياة الروحية والفكرية والمادية، بها يعمق الإنسان صلته بالمجتمع الذي يولد ويعيش فيه.

وقد حاول العلماء والمفكرون واللغويون، على مر العصور، أن يسبروا غور هذه الظاهرة الفريدة والعريقة في حياة البشر، وأن يزيحوا الستار عن سر أصلها ونشأتها، وكان لهم في ذلك آراء ونظريات، كما انصرفوا إلى الكشف عن اتصالها أو بالأحرى علاقتها بكل ألوان النشاط الإنساني، وما مدى تأثيرها في كل مظاهر الحياة.

أما مناهج البحث العلمي، فليست بدورها إلا وجهات نظر اجتهادية حاولت هي الأخرى بإمكاناتها المتعددة استيعاب الظاهرة اللغوية، والكشف عن حقيقتها. فتعددت بالتالي المناهج بتعدد زوايا النظر، انطلاقا من أنّ اللغة هي كالكعبة المتعددة الزوايا، فما قد يراه الباحث من خلال منهج معين يكمله أو يصححه، ما قد يراه من جانب آخر من خلال منهج آخر.

وانطلاقا مما سبق ذكره فإننا سنحاول من خلال هذا الفصل الإجابة ع ن عدد من التساؤلات هي : كيف نشأت اللغة الإنسانية؟ وما هي علاقتها ببقية العلوم الأخرى؟ والأهم من ذلك كله: ما هو مفهوم المنهج؟ وما هي علاقاته؟ ما هو مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث قديما؟ أي ما هي حقيقة الظاهرة اللغوية في ضوء المنهج التاريخي؟ وما هي حقيقتها أيضا في ضوء المنهج المقارن؟ ، هذه التساؤلات وأخرى سيتم الإجابة عنها بحول الله من خلال هذا الفصل.

1.1. نشأة اللغة الإنسانية وعلاقتها ببقية العلوم الأخرى.

1.1.1. نشأة اللغة الإنسانية.

أصل الإنسان، ونشأة لغته أمر يثير الخيال، ويدفع العقل إلى التفكير. ولذا كان البحث عن أصل اللغة الإنسانية الأولى من أقدم المشاكل الفكرية التي جابهت الباحثين والمفكرين على اختلاف الأجيال والعصور.

فقد نشط العلماء والفلاسفة، إلى الإجابة ع ن ذلك التساؤل المحير، فوجدوا أن اللغة- في أول أمرها – لم تخضع للمنطق والعقل، وإنما دلت الشواهد الأولية لها على أنها كانت وليدة فوضى الوضع الارتجالي القديم، قبل أن تخضع للفكر والمنطق،والوضع النظامي باعتبار أنها استعملت للتعبير عن الغرائز والعواطف ، ثم للغناء والمتعة، لتصبح بعد ذلك ذات أهداف في التعبير والتفاهم وإيصال المعاني (1).

ولم يقتصر البحث في أصل اللغة على فترة معينة ، بل امتدّ حتى شمل تاريخ فترة ما قبل الميلاد إلى العصر الحديث ، وبعد كثرة الأقوال وتعدد النظريات، قررت الجمعية ال لغوية في باريس سنة1878 منع تقديم أبحاث في هذا الموضوع، واعتبرت أنه دوران في حلقة مفرغة. كما أنّ كثيرا من العلماء ذوي الشهرة الذائعة والقدم الثابتة في علم اللغة أمثال (بلوم فيلد BLOOMFIELD، فيرث

FIRTH)لم يتعرضوا لدراسة هذا الموضوع بشكل علمي أو بصورة تنبئ على أهمية البحث فيه. وقد تناوله "فيرث "باختصار شديد على سبيل أن الكلام فيه نوع من الفلسفة اللغوية (2). أما "ماريوباي" فهو بدوره يدعو إلى عدم الغوص في هذا البحث ، باعتبار أنه لا يوصل الباحث إلى النتائج يقينية، بل مجرد أراء تصطبغ بالصريغة الشخصية والفلسفة لا غير . وفي ذلك قال: "فيما يختص بنشأة اللغة وطبيعتها، لدينا مصادر تعتمد الأساطير والحديث المنقول، والمناقشات الفلسفية، ولكن تنقصنا الحقائق العلمية في هذا الصدد..." .أما "فند ريس"، فقال أيضا:" الـلغويين يدرسون اللغات التي تتكلم وتكتب، ويتبعون تاريخها بمساعدة أقدم الوسائل التي

كشفت عنها ، ولكنهم مهما أوغلوا في هذا التاريخ، فلن يصلوا إلا إلى لغات قد تطورت وتركت خلفها ضخما لا نعرف عنه شيئا... ".كما أن " العالم اللغوي سواء لجأ إلى اللغات المعروفة ،أم إلى لغات المتوحشين، أم إلى اللغات التي يتعلم بها الأطفال الكلام، فلن يجد أمامه في كل حال إلا بنيانا شُيِّدَ منذ زمن طويل وتعاقبت على العمل فيه أجيال عديدة خلال قرون طويلة...". ويؤكد **"صبحي الصالح"** نفس هذا الرأي بقوله: "إنه من الأليق أن نبعد وننحي كل المباحث التي لا صلة لها بفقه اللغة، إذا أردنا للغتنا الحياة ,لأن ما وراء الطبيعة من الغيبيات، وفرض القواعد كما تفرض القوانين ليس من المنهج اللغوي في شيء...". (2)

غير أننا نقول أنّ المسألة إذا طرحت فلا بدّ أنّ تناقش، وإذا ذكرت فلا بد أن تشرح، خاصة ونحن نعلم أنّ لغز أصل اللغة هو مربوط بلغز أصل الإنسان إذ أنّ البحث في هذا مشروط بالبحث في الآخر وفك الأول مقيد بفك الثاني، كما أن دراستها ضرورة منهجية لا ينبغي تجاهلها، وفك لغزها سيؤدي بالضرورة إلى فك العديد من الإشكالات اللغوية، وبخاصة إشكالية العلاقة بين (اللفظ والمعنى)، كما أن التخيل والافتراض هنا لهما سند من الواقع، ولم ينطلقا من فراغ ، بل لهما واقع علمي وظاهرة ملموسة. وقبل هذا وذاك فإن مسألة أصل اللغة الإنسانية قد ورد ذكرها في القرآن الكريم.

ونظرا لهذا السبب ولغيره من الأسباب الأخرى يجدر بنا في هذا المقام أن نلم بإيجاز ببعض هذه النظريات التي حاولت كشف أصل اللغة ، استكمالا للمنهج واستعراضا لتفكير القدماء ، وتبيانا لفضل علمائنا القدامى الذين أسهموا بسهم وافر في الحضارة والتاريخ، ولم يكونوا عَجَزَة، و لا عيالا على غيرهم كما لم يكونوا نقلة بريد كما يرميهم خُصُومُهُم وقد جمع السيوطي (ت 911هـ) كل ما قيل من آراء ونظريات حول ذلك في كتابه "المزهر". ومن أهم هذه النظريات نجد:

1.1.1.1 نظرية الإلهام و الوحي و التوقيف :

مفادها أن الله أوحى إلى الإنسان الأول وأوقفه على أسماء الأشياء-بكل اللغات-

مباشرة أو بواسطة، بعد أن علّمه النطق.(3)

وهذه النظرية قديمة قال بها الفيلسوف اليوناني (هيراقليط) (480 ق.م) والفيلسوف الإغريقي (هيراكليت) (480 ق.م)، ويرى (أفلاطون) أن اللغة ظاهرة طبيعية، وأن الكلمات وأصواتها جزء لا يتجزأ من المعنى بينما يرى (أرسطو) أنها ظاهرة اجتماعية وأن أصواتها رموز إص طلاحية لا علاقة طبيعية أو مباشرة لها بالمعاني. فأفلاطون مع هذه النظرية وأرسطو مع الآتية. كما أن لهذه النظرية إشارات في الأديان –كدليل نقلي- ففي التورات: « والله خلق من طين جميع حيوانات العقول، وجميع طيور السماء، ثم عرضها على آدم، ليرى كيف يسميها، وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء جميع الحيوانات المستأنسة، ولطيور السماء، ودواب الحقول »(3)

أما العلماء المسلم ون فقد استندوا إلى قوله تعالى: « وَعلّمَ آدَمَ الأَسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة » سورة البقرة ،الآية 31.

وارتضى هذه النظرية:

1- أبو عثمان الجاحظ (255هـ)، حيث قرر أن الله سبحانه أنطق نبيه إسماعيل بالعربية، دون سبق تمهيد أو تعليم، يقول: «وقد جعل الله إسماعيل –وهو ابن أعجمين-عربيا، لأن الله لما فتق لسانه بالعربية المبنية على غير التلقين والترتيب، وفطره على الفصاحة العجيبة، على غيرا لنشؤ والتمرين، وسلخ طباعه من طبائع العجم، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء...، ثم حماه من طبائعهم، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم. وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأسناها، وأشرفها وأعلاها وجعل ذلك برهانا على رسالته، ودليلا على نبوته، وصار أحق بهذا النسب وأولى بشرف ذلك الحسب».(1)

2- و نادى بهذه النظرية أيضا: أبو علي الفارسي (377ه) أستاذ ابن جني.

3- وارتضاها أبو الحسن أحمد بن فارس الرازي (395هـ)، واتخذ موقف الدفاع عنها، وكان زعيم القائلين بها، ذلك أنه قال أن الله –سبحانه وتعالى- علم آدم اللغة تعليم تلقين، وعقد لذلك بابا سماه" القول أن لغة العرب، أتوقيف هي ووحي أم اصطلاح وتواطؤ؟". قال فيه: "أقول إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله –جل ثناؤه- [وعلم آدم الأسماء كلها]..."، ثم ذهب أحمد بن فارس إلى تفسير المقصود بالأسماء فقال: " فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها، وهي الأسماء التي يتعارفها الناس، من دابة وأرض وسهل وجبل و (جمل) وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها». وروى خُصَيفُ عن مجاهد قال: علمه اسم كل شيء. وقال غيرهما: إنما علمه أسماء الملائكة. وقال آخرون: علمه أسماء ذريته أجمعين"(4)

وفي هذه المسألة نراه يرجح قول ابن عباس، الذي يرى أن الله –سبحانه وتعالى- علم آدم أسماء الأشياء بما هي معروفة لدينا الآن، كما أن أحمد ابن فارس وقف شارحا للصيغة اللغوية التي نزلت بها الآية الكريمة. فيقول: «فإن قال قائل: لو كان ذلك كما تذهب إليه لقال: «ثم عَرَضَهُنَّ أو عرضها، لأن موضوع الكناية في كلام العرب أن يقال لما يعقل "عرضهم"، ولما لا يعقل عرضها أو عرضهن، قيل له، إنما قال ذلك –والله أعلم- لأنه جمع ما يعقل وما لا يعقل فغلب ما يعقل، وهي سُنَّةٌ من سنن العرب (أعنى باب التغليب) وذلك كقوله –جل ثناؤه- [والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومهم من يمشي على رجلين، ومنه من يمشي على أربع]. فقال "منهم" تغليبا لمن يمشي على رجلين وهم بني آدم»(4)

وقد قدم "ابن فارس" أدلته التي أثبت من خلالها أن لغة العرب توقيفية، قال « والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق....» (4)

وبالرغم من إيمانه الشديد بهذه النظرية، إلا أنه يقر أن اللغة تتغير من عصر إلى عصر طبقا لحاجات المتكلمين، ومن ثم نراه يفسر ظاهرة التغيير اللغوي حسب النظرية التوقيفية. قال: «ولعل ظ انَّا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيفية إنما جاءت جملة واحدة، وفي زمن واحد، وليس الأمر كذلك، بل وقف الله آدم –عليه السلام- على ما شاء أن يعلمه إياه، مما احتاج إلى علمه في زمانه، وانتشر من ذلك ما شاء الله، ثم علم بعد آدم –عليه السلام- من عرب الأنبياء –صلوات الله عليهم- نبيا نبيا ما شاء الله أن يعلمه حتى انتهي الأمر إلى نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم- فآتاه الله من ذلك ما لم يأته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة، ثم قرَّ الأمر قراره فلا نعلم لغةً من بعده حدثت...» (4)

وفكرة كمال اللغة العربية زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم- فكرة نابعة من ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم، وهي فكرة دينية لا لغوية(4).

كما أن كتاب الصاحبي أيضا يحوي إشارات واضحة إلى الأثر الاجتماعي والفكري في تطور دلالة الألفاظ في العصر الإسلامي. قال أحمد بن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله –جل ثناؤه ـ بالإسلام حالت الأحوال ، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى، بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت فعفى الآخر عن الأول» (4). ثم يقول: «فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان هو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمنا، وكذلك الإسلام والمسلم» (4).

وهكذا فإن أحمد ابن فارس رغم إيمانه الشديد بفكرة التوقيف إلا انه لم يستطع أن يتجاهل الأثر الاجتماعي في نمو اللغة وتطورها وهذا ما جعلنا نثبت فكرة القول إنَّ اللغة ظاهرة اجتماعية.

2.1.1.1.نظرية الاتفاق و المواضعة والاصطلاح:

وخلاصتها أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتجال ألفاظها (1) وقد مال كثير من العلماء والمفكرين إلى هذه النظرية كأرسطو، والمعتزلة، والأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة (211هـ)، كما قال بهذه النظرية أيضا ابن جني في كتابه (الخصائص) فقد عقد بابا بعنوان "باب القول عن أصل اللغة أإلهام أم اصطلاح"، قال فيه: «هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، غير أنَّ أكثر النظر على أن أصل اللغة إنما هي تواضع واصطلاح، لا وحي (وتوقيف)» (4)

غير أنه لا يلبث أن يقدم الرأي الآخر الذي عرضناه "لابن فارس" آنفا فيقول: «إلا أن أبا علي – يقصد أستاذه أبا علي الفارسي- رحمه الله قال لي يوما: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه "وعلم آدم الأسماء كلها" وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله، أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا كان محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به، وقد كان أبو علي رحمه الله أيضا قال به في بعض كلامه، وهذا أيضا رأي أبي الحسن، على أنه لم يمنع قول من قال: إنها تواضع منه...»(6).

وهكذا فإن "ابن جني" قد استشهد في كلامه بالآية الكريمة ليبرهن على سقوط الاستدلال بها على أن اللغة توقيف، حيث أنه فسَّر "علَّم" في الآية بمعنى "أقدر" لا بمعنى "لقَّن" كما فهم ابن فارس وغيره من المنادين بنظرية التوقيف، وبذلك تكون الآية الكريمة التي تعتبر دليلا على نظرية التوقيف تحتمل أكثر من معنى. والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال كما يقول الأصوليون.

ثم نراه يعرض بعد ذلك مسألة "اختلاف اللغات" طبقا لوجهة نظر أصحاب التوقيف، قال : «على أنَّه قد فُسر هذا بأن قيل: إنَّ الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات، بجميع اللغات: العربية، والفارسية والسريانية، والعبرانية، والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إنَّ ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه، واضمحلَّ عنه ما سواها لبعد عهدهم بها»(6).

وقد ذكر في الآية الكريمة، أنَّ الله سبحانه علَّم أدم الأسماء، ولكن "ابن جني" قال: «فاللغة فيها أسماء وأفعال، وحروف، وليس يجوز أن يكون المعلَّم من ذلك الأسماء دون غيرها: مما ليس بأسماء، فكيف خصَّ الأسماء وحدها»(6).

وردا على هذا التساؤل قال "ابن جني" أيضا: « قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القبل الثلاثة، ولابدَّ لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة والأوليَّة في النفس والرتبة، على ما لا خفاء به جاز أن يكتفي بها مما هو تالٍ لها، ومحمول في الحاجة إليه عليها...»(6)

وفكرة الأقوى والأضعف من أقسام الكلام، فكرة "عقلية" لا" لغوية"، فكل من الاسم والفعل والحرف له وظيفة محددة في اللغة تتساوى من حيث أهميتها مع الوظائف الأخرى التي تقوم بها بقية أقسام الكلام، وإذا كانت بعض الجمل في اللغة قد تستغني عن الفعل والحرف ولا تستغني عن الاسم، فليس معنى هذا أن الاسم له قوة أو أفضلية على سائر أقسام الكلام وإنَّما كل ما يمكن أن يقال صدد هذا ، أنَّ هذا النوع من التراكيب اللغوية لا تحتاج إلى وظيفة الفعل والحرف5.

أما عن الطريقة أو الكيفية التي تمت بها المواضعة على اللغة حسب أنصار المذهب الوضعي (الاصطلاحي)، فقد ذكرها "ابن جني" فقال: «إن أصل اللغة لابدَّ فيه من المواضعة ، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد (منها) سمةً ولفظًا، إذا ذكر عرف به مسماه، ليمتاز عن غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخفَّ وأسهل من تكلف إحضاره، لبلوغ الغرض في إبانة حاله. بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن إحضاره ولا إدناؤه، كالفاني، وحال اجتماع الضدَّين على المحل الواحد، فكيف يكون ذلك لو جاز، وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه...» (6).

ومن الطريف أن هذه الفكرة نفسها ذكرها "روسو" تفسيرا لنشأة اللغة، إذ ذهب إلى أن الناس قد اجتمعوا –في القديم- لوضع لغة والاتفاق عليها، وهذا الاتفاق إنما هو ظاهرة من ظواهر (العقد الاجتماعي). (4)

كما نلحظ في كتاب الخصائص إشارة واضحة إلى السمة الرمزية والإشارية التي تمتاز بها اللغة العربية. قال ابن جني: « فكأنهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم، فأومئوا إليه، وقالوا: إنسان إنسان إنسان، فأيُّ وقت سُمِعَ هذا اللفظ عُلِم أنَّ المراد به هذا الضرب من المخلوق، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد، عين، رأس، قدم، أو نحو ذلك.... ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها، فتقول: الذي اسمه إنسان فليجعل مكانه (مَرد)، والذي اسمه رأس فليجعل مكانه (سَر) وعلى هذا بقية الكلام ".(6)

إلا أن هذه الصورة المتخيلة للمواضعة لا ترتكز على أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي، وإنَّ ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة، التي تسير عليها النظم الاجتماعيَّة، فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا، ولا تخلق خلقا، بل تتكون من تلقاء نفسها. هذا و أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم عليها المتواضعون. فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن؟. وهكذا نرى أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل.

3.1.1.1 نظرية المحاكاة:

أي محاكاة أصوات الإنسان، أو الحيوان، أو الطبيعة، حيث قلد الإنسان الأصوات التي سمعها، واتخذ منها أسماء يعبر بها عما يصادفه في حياته. وقد ذهب إلى هذه النظرية من العلماء المسلمين "ابن جني"، عندما قال: « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويُّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل...».

وعليه فإن ابن جني لم يتبين موقفا صريحا في إشكالية أصل اللغة، غير أنه كان يبدي رأيا مستحسنا في التوقيف مرة والاصطلاح والتواضع مرة أخرى وفي الطبيعة والمحاكاة والأصوات ثالثة، بقوله مثلا في النظرية الصوتية، هذا رأي حسن ومذهبٌ متقبلٌ. لكن من دون أن يقطع بموقفٍ واحدٍ صريحٍ. وهنا لابدَّ من التفريق بين شيئين أحدهما:

- استحسان الرأي.

- تبني الموقف.

هذا الذي لم يأخذ به بعض الباحثين الذين قرؤوا الاستحسان موقفًا، فصنَّفوا على إثره "ابن جني" في النظرية التوقيفية، بحجة أنَّ أستاذه أبـي علي الفارسي من أتباعه، وآخرون صنَّفوه في الاصطلاحية، وآخرون في الصوتية.

والحقيقة التي تطرح نفسها هنا: أنَّ إبداء الرأي لا يعنى تبني موقفًا، وأن تعدد الاستحسان من دون تصريح برفض أو معارضة يفيد أنَّ اللغة لا تقف في نشأتها على أصل واحد وإنما على متعدد ، ويفيد أيضا أن اجتماع هذه الآراء هو الذي يمثل بالحق الأصل للغة . (4)

وبذلك نكون قد أشرنا إلى أهم مذاهب العلماء المسلمين القدماء، الذين بحثوا ظاهرة نشأة اللغة الإنسانية وأصلها.

أما إذا تحدثنا عن علماء فقه اللغة في أوروبا أو الفيلولوجيا وجدناهم بدورهم قد شُغِلُوا خلال القرن التاسع عشر بهذه المسألة، وكانت لهم في ذلك آراء ونظريات تسلحت بأفكار فلسفية ونظريات غير لغوية مثل نظرية داروين. مما أدى إلى ظهور عدد من النظريات حول نشأة اللغة أهمها:

1 -نظرية البو-الواو BOW-Waw

ومفادها أنَّ أصل اللغة الإنسانية نشأت نتيجة محاكاة أصوات الطبيعة، وهي النظرية التي أشار إليها "ابن جني" في كتابه الخصائص، في فصل بعنوان "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، أي أن الصوت قيمة تعبيرية أو معنوية خاصة به. وقد أدى إلى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة، في كل لغة، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والزقزقة والقهقهة والحفيف والخرير...الخ. وإننا نرى شيئا من صدق هذه النظرية متمثلا في لفظه GUCKOO وهي اسم طائر سُمِي بالصوت الذي يحدثه. وقل هذا في لفظة "مـو" فإنها تعني في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة".(4)

وبذلك نرى أن الإنسان الأول قد اتخذ من أصوات الحيوانات المختلفة رموزا يشير بها إليها في غير وجودها. فنباح الكلب مثلا اتُخِذ رمزا يدل على هذا الحيوان، ومثل ذلك عواء الذئب وزئير الأسد.

ومن هذه الأصوات تكونت مجموعة من الكلمات يرى أصحاب هذه النظرية أنها من أقدم الكلمات في لغات البشر، ثم تطورت هذه الأصوات أو الكلمات من الدلالة على هذه المعاني الحسيَّة إلى معان أخرى أكثر تجريدًا، ومن هذه الأصوات البدائية تكونت اللغات فيما بعد. (5)

إلا أن ماكس ميلر (Max Miller)، وهو من كبار علماء اللغة في القرن التاسع عشر اعترض على هذه النظرية، واعتبر أنه ليس من المعقول أن يقلد الإنسان أصوات حيوانات أدنى منه ، والألفاظ التي يمكن تفسيرها بأنها تقليد لأصوات طبيعية قليلة جدا بحيث لا يمكن أن تكشف لنا عن نشأة اللغة. (7) حتى أن الكلمات أو الأصوات ذات الجرس المعبر أو حكاية الصوت (Echo-Word) أو (Onomatopée Word)، تختلف (من لغة إلى لغة، بل تختلف في اللغات ذات الأصل الواحد ولو كانت هذه النظرية صحيحة لكانت أسماء الحيوانات والكائنات الأخرى أو مظاهر الطبيعة واحدة في جميع اللغات لأنها تقليد لأصوات الطبيعة. (4)

2-نظرية بوه-بوه (Pooh-Pooh).

وتسمى أيضا بنظرية الأصوات التعجبية العاطفية (Interjections)، ومفادها أن الكلمات الأولى التي نطق الإنسان بها كانت أصواتًا تعجبية عاطفية صادرة عن دهشةٍ أو فرحٍ أو حزنٍ أو وجعٍ أو استغرابٍ أو تقززٍ أو تأففٍ. (9)

ويدين أصحاب هذه النظرية بما نادى به "دَاروين" في نظريته المشهورة الخاصة بتطور الكائنات الحية،الذي ربط فيها بين نشأة اللغة وتلك الأصوات الغريزية الانفعالية من تأوهات وآهات وأصوات الدهشة والتعجب و جعلها الأساس الذي استمدت منه هذه النظرية نشأتها. كما حاول أن يُفسر هذه الأصوات تفسيرًا فسيولوجيًا، فقر أنّ الشعور بالازدراء أو الغضب يصحبه عادةً ، ميل إلى النفخ بالفم أو الأنف وهنا ينشأ صوت مثل (Pooh) أو (أُفْ)، الذي نستعمله في لغتنا العربية للدلالة على الضيق أو الغضب. (5)

غير أننا نرى أن هذه الأصوات التي تجعلها هذه النظرية تفسيرًا لنشأة اللغة تعتبر أصواتًا فُجائية لا إرادية، وهي بذلك تختلف عن طبيعة الكلام الذي يصدر بصورة إرادية عن الإنسان. كما أنّ هذه النظرية وإن استطاعت تفسير بضعة ألفاظ فإنّها عاجزة عن تفسير الجزء الأكبر منها. فما علاقة لفظة الحرية والعدل والغضب والحب والإنسان والفيل والقط بالأصوات التعجبيَّة العاطفيَّة؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة.

3-نظرية دنج –دونج(ding-dong)

وهي النظرية التي وضعها اللغوي الألماني الشهير" ماكس ميلر"، ودعاها نظرية "دِنْج دوُنْجْ" Ding-Dong ، وخلاصتها أنَّ الإنسان مزودٌ بفطرته، بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، كما أنه مطبوع على الرغبة في التعبير عن أغراضه بأية وسيلة من الوسائل، غير أنّ هذه القدرة على النطق لا يظهر أثرها إلا عند الحاجة. (2)

وقد أُطلق على هذه النظرية (دنج-دونج) لأنَّها شبهت هذه القوة الفطرية بلولب الساعة الملتف في باطنها ،ويُشبه حوادث الزمن ببندول الساعة، الذي يتحرك، فيخرج بتحركه القوة الكامنة في الساعة، التي ينطوي عليها اللولب، فالزمن ومقتضيات الأحوال هي التي تُخرج هذه القدرة من حيز القوة إلى حيز الفعل، وكأنَّ النفس البشرية مخزن ممتلئ بالألفاظ، ينفتح شيئًا فشيئًا بمفتاح الزمن ومقتضيات الحياة الواقعية. (2)

ومعنى هذا أنَّ كل أثر خارجي يتأثر به الإنسان يستلزم النطق ببعض الأصوات، أي أنَّ الأصوات لا تعدوا أن تكون صدى لمؤثرات خارجية، وهي تختلف باختلاف هذه المؤثرات. وبناءًا على هذا الاختلاف في المؤثرات اختلفت الأصوات، ولذلك تعددت الألفاظ وتعددت الأصوات الدالة عليها واختلفت.

غير أن هذه النظرية لم تحل المشكلة بل زادتها تعقيدًا ، حيث ذكرت أنَّ الإنسان بفطرته مزود بذخيرة لغوية، يستطيع من خلالها إرضاء رغبته الفطرية في التكلم والتعبير عن أغراضه، ونحن نعلم أن آثار القوى الفطرية، لا بد أن تكون متحدة إلى حد ما. فكيف ظهرت هذه الكلمات الأولى لدى الإنسان كاملة غير خاضعة للسنن التطور اللغوي؟ (2)

4-نظرية يو هي هو (yo-he-ho)

وتُلقب هذه النظرية بنظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية. ومفادها أنَّ اللغة نشأت من أصوات جماعية صدرت عن مجموعة من الناس أثناء قيامهم بعمل شاق يحتاج إلى التعاون على أدائه. (5)

ومن هذا القبيل أغنية المجذفين على نهر "الفُولْغَا"، أو ما نسمعه من بعض العمال حين يؤدون عملاً شاقا إذ نراهم يرددون أصوات مثل "هِيْلا-هُوبْ"، أو عبارات لا تكاد تتضمن معنى مفهوما، ثم ما لبثت هذه الأصوات أن تنوعت بتنوع العمل بحيث أصبحت رمزًا لعمل معين ينطقون به كلَّما أرادوا هذا العمل، ومن هذه الأصوات كانت النواة الأولى للكلام الإنساني. (5)

ولكن هذه النظرية بدورها فسرت جزءًا يسيرًا من اللغة، ويبقى السؤال مطروح: كيف نشأت اللغة من هذه الأصوات العفوية التعبيرية التي توافق حركات الجسم العضلية؟ وما علاقة لفظ الجمال والأمن والأب والأم، وهذه الأصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية؟. ليس هناك من علاقة ظاهرة. تلك هي أهم النظريات التي حاولت تفسير نشأت اللغة وأصلها والتي اشتهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوربا، وهي كما نرى نظريات غير علمية لأنها تقوم على افتراضات لا سبيل إلى التأكد من صدقها وواقعيتها، بذلك فهي مخالفة لصفات البحث اللغوي العلمي.

وخلاصة القول، فإن هذا الموضوع يعتبر ملفًا مفتوحًا على قِدَمِه بِطَلب الاجتهاد فيه باستمرار. كما أن المعالجة له مربوطة بمعالجة أصل الإنسان، أما الدعوة لإيقاف الموضوع وإخراجه من دائرة الأبحاث العلمية فدعوة لا مبرر لها. ويمكن التأكيد في هذه الدراسة أن إشكالية أصل اللغة لا تقف على الأصل الواحد إنما على متعدد، وذلك بحكم أن الإنسان مقيد بجوانب أساسية تقوم عليها حياته وهي جاذبية الوحي والعقل والطبيعة والنفس.

2.1.1. ارتباط الظاهرة اللغوية ببقية العلوم الأخرى

ليست اللغة بمعزل عن العلوم الأخرى، فلها "ارتباط وثيق بعلوم الطبيعة، حيث أنّ أصوات لغة الكلام تنتج وتستقبل عن طريق أجهزة الجسم الإنساني، وتركيب هذه الأجهزة ووظائفها جزء من علم وظائف الأعضاء. كذلك فإن انتقال الصوت على شكل موجات صوتية عبر الهواء يدخل في اختصاص علم الطبيعة، وبخاصة ذلك الفرع المعروف بعلم الصوت".(4)

والحق أن هذا العلم المعروف (بعلم الصوت) له بوادر وإرهاصات واضحة وظاهرة في الدرس اللغوي العربي القديم، فقد اهتم العرب بضبط القرآن الكريم وقراءته وتجويده، فعرفوا الوجوه التي نطقت بها العرب، وطريقة أداء القرآن بالتلقي والمشافهة ودرست اللهجات العربية في ظل القراءات القرآنية، كما درس العرب مخارج الحروف و موسيقاها وصفاتها. وهذا اللون من البحث هو ما عرف أخيرا عند العلماء الغرب بالأصوات التي يضم (الفونتكس phone tics) ، أي الوصف و (الفونولوجي phonologie) ، أي التنظيمي. (1)

واللغة قبل هذا وذاك نشاط اجتماعي،من حيث أنها استجابة ضرورية لحاجة الاتصال بين البشر، وأداة من أدوات تنسيق الجهود الفردية ومزجها في مجهود جماعي عام. قال ماريوباي : «... ولكن اللغة من ناحية أخرى لها علاقة وثيقة بعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، باعتبارها نتاج علاقة اجتماعية، ووسيلة نقل الثقافة التي تعتبر من وجهة نظر علم الإنسان مجموعة تقاليد الشعب وأوجه استعمالاته للغته»(10)

ولهذا السبب اتصل علم اللغة اتصالاً شديدًا بالعلوم الاجتماعية، فنشأ لذلك فرع من فروعه سمي ب (علم الاجتماع اللغوي)، هذا العلم الذي يدرس المجتمع في إطار علاقته باللغة. وقد أشار العلماء والباحثون إلى مجموعة من الموضوعات التي يهتم بها هذا العلم، ومن أهمها ما يأتي:

- تأثير التركيب الاجتماعي للأسرة في اكتساب الأطفال للغة.
– تطور اللغة عند الطفل ومراحل اكتسابها.
- استعمال اللغة لدى الأفراد وصلته بالمكانة أو المنزلة الاجتماعية.
- السن الذي يدرك فيه الأطفال الدلالة الاجتماعية لمختلف الصيغ الكلامية.
- علاقة اللغة بالثقافة، ودور اللغة في البناء الثقافي، وأثر الثقافة في البناء اللغوي(4.)

وقد تنبه اللغويون إلى مثل هذه البحوث، بعد أن رأوا الدراسات التي قامت بها المدرسة الاجتماعية الفرنسية، التي أنشأها "دوركايم Durkheim" في أوائل القرن العشرين، حيث انضم إليها كثير من علماء اللغة في فرنسا وألمانيا وانجلترا وسويسرا والدان يمارك، أما البعض الآخر من العلماء فلم ينضم إليها انضماما كليا ولكنهم تأثروا بعقلية "دوركايم"، وخير مثال على ذلك أبحاث سوسير في اللغة ، التي أخذت أو تأثرت بالمنهج العام لفلسفة المجتمع التي كانت متواجدة في ذلك الوقت، والذي يُعدُّ دوركايم له أثر كبير في تشكيلها أكثر من أي شخص آخر في الإبداع والتعبير. فقد وصف سوسير اللغة بأنها نتاج للعقل الجمعي للمجموعات اللغوية(5)

وهكذا أصبحت بحوث المدرسة الاجتماعية الفرنسية أساسا للبحوث اللغوية، إذ طبقت نظريات علم الاجتماع العام في اللغة، كما حاول الباحثون أن يظهروا لنا أثر المجتمع ونُظُمه وحضاراته المختلفة على الظواهر اللغوية أولا وقبل كل شيء. يقول فندريس : « في أحضان المجتمع تكونت اللغة، ووُجدت يوم أحسَّ الناس بالحاجة إلى التفاهم بينهم، وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص، الذين يملكون أعضاء الحواس، ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرفاتهم، الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة، والنظرة إذا لم تكف الإشارة». (2)

وقد أدت بحوث علماء الاجتماع في اللغة، ومبالغتهم في الربط بين اللغة والمجتمع، وإنكارهم أن تكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر في اللغة، إلى هجوم بعض العلماء عليهم ولا سيما "علماء النفس"، الذين كتبوا عن العلاقة القائمة بين اللغة والفكر، وما لهذا الأخير من أثر مباشر فيها. قال ماريوباي: «وبالنظر إلى وظيفة اللغة كتعبير عن الفكر، يمكن اعتبار اللغة جزءا من علم النفس ».(10)

كما أن النفس الإنسانية بما يعتورها من حالات الرضا والسرور، والغضب والنفور، والاستحسان والاشمئزاز، وغير ذلك ينعكس أثرها على اللغة في تطورها وحياتها، إذ تقبل النفس ألفاظًا فتحيا، وتنفر ألفاظًا أخرى فتموت، كما يؤدي النبر المعبر عن الرضا أو الغضب، إلى تغيير في النطق، فتطول بعض المقاطع الصوتية، وتقصر الأخرى وتتلاشى. (2)

ولا عجب بعد كل هذا، إذا نشأ في علم النفس فرع من فروعه يدرس اللغة، وأثر النفس الإنسانية على الظواهر اللغوية، وهو الفرع المسمى "علم النفس اللغوي". (2)

أما إذا تكلمنا عن العلاقة التي نشأت بين (علم اللغة) و(علم النفس) فيمكن للدارس أن يعود بها إلى العالم اللغوي الأمريكي ليونارد بلوم فيلد Leonard Bloomfield،الذي اعتمد في دراسته للغة على معطيات علم النفس التي كانت سائدة في عصره، واعتبر أن علم اللغة يعد فرعا من علم النفس، وبصورة أدق من المجموعة الوضعية لعلم النفس المعروف بالسلوكية، وهكذا فإن تنظير بلوم فيلد حول اللغة كان تنظيرا سلوكيا، وقد ظهر ذلك بوضوح في كتابه الرائد (language).(2)

الذي تأثر فيه "بالمنهج السلوكي" في علم النفس، وانتهى به المطاف إلى اعتباره(علم النفس السلوكي) هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بواسطتها دراسة الدلالات الغوية، والدليل على ذلك توقفه أمام (الحدث الكلامي) Speech évent وتحليله في ضوء المذهب السلوكي.

ومن المعروف أن (السلوكية Behaviorisme) في علم النفس هي الاستجابة الكلية التي يبديها الكائن الحي إزاء أي موقف يواجهه، لذلك لا يقصد بها التصرف الحسن أو القبيح إزاء الآخرين. (11)

أما (سكنر) B.F.Skinner فهو الآخر يعد من أبرز ممثلي المذهب السلوكي في علم النفس، وقد طمح إلى تأسيس علم جديد سماه (علم السلوك اللفظي)، يكون فرعا من العلوم السلوكية. ويهتم بمعالجة المسائل السلوكية الكلامية التي غفلت عنها- برأيه - علوم الألسنيَّة والبلاغة والدلالة ودراسة الاضطرابات اللغوية، كما يهتم بالتحليل الوظيفي للسلوك اللفظي وبتحديد المتغيرات التي تتحكم بهذا السلوك وتفاعل تلك المتغيرات فيما بينها، وكان هدفه الأساسي تحديد الاستجابات اللفظية والتنبؤ بها، وهذا يُدرس في إطار التحليل الوظيفي للسلوك اللفظي، وقد اختار (تعبير السلوك اللفظي) بدلاً من (اللغة)، أو (السلوك اللغوي)، باعتباره يهتم بالفرد المتكلم والمحصول اللفظي الصادر عنه، دون الاهتمام بالقواعد التي تضبط النظام اللغوي، ومع ذلك فإن "سكِنَر" لم يهمل قواعد النحو، لأنها عنده مجموعة من الإمكانات التي تقع بين الألفاظ، ولا بد من المحافظة عليها في إطار "الجماعة اللغوية".(11)

كما اعتبر سكنر (اكتساب اللغة) مهارة تنمو لدى الفرد عن طريق المحاولة والخطأ، ويتم تدعيمها عن طريق المكافأة، والمقصود بذلك أن الطفل الذي يبدأ في استخدام بعض المنطوقات تكون المكافأة الخاصة به متمثلة في تقبيل والديه له أو في التأييد والاستحسان والتشجيع من الذين يستمعون إليه في إطار البيئة الاجتماعية، وهذا يساعد في نمو الطفل اللغوي. (11)

أما "تشو مسكي" فقد نشر مراجعة لكتاب "سكنر"، الذي حمل عنوان: Areview of B.F. Skinner verbal Behavior ، شنَّ فيها هجوما على آراء سكنر، وخاصة ذلك الرأي الذي يُشبه فيه تعلم الإنسان بتعلم حيوانات التجارب، باعتبار أن المثير الواحد- حسب اعتقاده – تتعدد الاستجابات إزاءه، وتختلف اختلافا كثيرا. (11)

والأهم من كل ذلك في هذا المقام أن "تشو مسكي" قد ربط علم اللغة بالدراسات النفسية والفلسفية، وخير دليل على ذلك تلك المؤلفات التي ظهرت بعد كتابه (التراكيب النحوية) مثل:

-Language and mind.
-cartesion linguistics

وقد أكد في تلك المؤلفات أهمية النحو التحويلي في دراسة العقل البشري، حتى أن "جون ليونز "John lyons " أشار في كتابه الذي ألفه عن "تشومسكي" إلى أن هذا الأخير وصف علم اللغة بأنه أحد فروع علم النفس، وليس فرعا قائما بذاته. (11)

ومن أجل ذلك كانت اللغة ملك مشاع لكل العلوم البشرية الأخرى، ومصدر للبحث المتعدد الآفاق، أخذين بعين الاعتبار أن اللغة خاصية إنسانية، وأن الإنسان بدوره كائن اجتماعي يتواصل مع غيره عن طريق انتقال الصوت على شكل موجات صوتية عبر الهواء بهدف التعبير عما يختلج في ذهنه من أفكار- ونظرا لهذا السبب دخلت اللغة ميادين العلوم، والمعارف الإنسانية، مفيدة منها في النظر، والتحليل لمعطيات الظاهرة اللغوية، فكانت خيوط التواصل تمتد، والدائرة تتسع، حيث وجدنا بحوث اللغة تسبح في محيط علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأجناس، وعلم الرياضيات، وعلم الكيمياء، والهندسة والحاسوب وعلمي الإحصاء والأحياء وسواهما .

وعليه نصل إلى القول أن العلوم والمعارف الإنسانية تخدم بعضها بعضا، في معالجة أية ظاهرة من الظواهر، ولا مجال إلى التخصص فيها.

2.1. في ماهية المنهج

1.2.1. في مفهوم المنهج

تثير كلمة المنهج الكثير من اللبس المعرفي، إلا أن هذا لا يمنعنا من حصر أهم ملامحها الأساسية:

فالمنهج لغةً هو الطريق الواضح البين، يقال المِنْهَاجُ الطريق الواضح ونهجت الطريق: أبنته وأوضحته، ونهجت الطريق: سلكته، والنَّهْجُ الطريق المستقيم(6.)

ولفظ "المنهج" ترجمة لكلمة Méthode في اللغة الانجليزية ونظائرها في اللغات الأوربية الأخرى، وهي تعود إلى كلمة يونانية كان أفلاطون يستعملها بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، كما نجدها كذلك عند أرسطو أحيانا كثيرة بمعنى "البحث". والمعنى الاشتقاقي الأصلي لها يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى الغرض المطلوب. (11)

ومناهج البحث يتناولها عادة الفلاسفة، إذ يفردون لها في مؤلفاتهم بابا أو جزءا باسم " Méthodologie"، وفيه يتناولون الأسس الفلسفية لكل منهج في كل علم، بعد الفراغ من تحليلهم لعمليات التفكير بعامة. (11)

وهناك عدة تعاريف للمنهج، تدور في إطار التنظيم الدقيق لمجموعة من الأفكار من أجل الوصول إلى حقيقة، لم تكن معروفة من قبل، ويطبع هذا التنظيم وجود طائفة من القواعد العامة تسيطر على سير العقل. وهذه مجموعة من تعار يف المنهج:

- المنهج: هو مجموعة من الخطوات المنظمة والعمليات العقلية الواعية والمبادئ العامة والطرق الفعلية التي يستخدمها الباحث لتفهم الظاهرة موضوع دراسته. ومن ثم فالمنهج يجيب على سؤال مؤداه ، كيف يمكن حل مشكلة البحث، والكشف عن جوهر الحقيقة، والوصول إلى قضايا يقينية لا يشوبها احتمال أو شك(7).

- المنهج: مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من علوم بلوغ الحقائق المتوخاة، مع "إمكانية بيانها والتأكد من صحتها"(8.)

- المنهج: فن التنظيم الصحيح لسلسة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين أو من أجل البرهنة عليها للآخرين، حيث نكون بها عارفين(9.)

والقواعد الموجودة في "علم المنهج" Méthodologie ، لا تعنى قتل روح الإبداع في الباحث، لأنها ليست قيدًا على فكره، أو محاولة للإثقال عليه، وإنما يؤخذ بها على سبيل الاهتداء، كما أنها قابلة للإضافة والتعديل حتى تكون متوافقة مع موضوع البحث و عرضة للتغيير حسب التطور الذي يحدث في العلم ، والجديد الذي يطرأ عليه. (11)

2.2.1. في علاقات المنهج.

1.2.2.1. بين المنهج والنظرية

يستند كل منهج على نظرية معينة، فالنظرية "Théorie" ضرورية وأساسية للمنهج، ذلك أن في أساس كل مناهج المعرفة تكمن القوانين الموضوعية للواقع، وهذا هو السبب الذي يجعل من المنهج يرتبط ارتباطا لا ينفصم بالنظرية. (15)

فالمناهج تتصل بإنتاج المعرفة ، وهذه الأخيرة تعني معرفة قوانين ظاهرة ما، وصياغتها نظريا، من أجل فهمها وشرحها. لذا فالعلاقة قائمة بين المنهج والنظرية على المستوى المعرفي، وهو ما يطرح قضية الموضوعية في العلوم الإنسانية.

إن النظرية هي تعبير عن الحقيقة، إنها مجموعة مترابطة من المفاهيم و التعاريف والقضايا التي تكوِّن رؤية منظمة للظواهر، عن طريق تحديدها للعلاقات بين المتغيرات بهدف تفسير الظواهر والتنبؤ بها(10)

فالنظرية إذن أحد الوسائط المعرفية التي يستخدمها الباحث قصد الفهم، والتفسير والتوقع، أما المنهج فهو الموجه للممارسة الإنسانية الهادفة، ولخلق منهج ما هناك شرط أساسي، هو وجود نظرية معينة، وكذا لبيان نظرية ما لا بد من منهج مناسب لتلك النظرية.(17)

ويمكن الفارق بين النظرية والمنهج في أن النظرية متكاملة وبالتالي مغلقة، أما المنهج فهو في حالة البحث عن العناصر الثابتة مما يجعله في حالة انفتاح. إن المنهج بالرغم من ارتباطه الأكيد بإطار نظري معين يتمتع بانفتاح طبيعي يسمح له بالاتسام بطابع الاستقلالية النسبية عن النظرية.(17)

إذن فالعلاقة بين المنهج والنظرية قائمة، رغم اختلاف الطبيعة المعرفية لكل واحد منه ما، فإذا كانت النظرية عامة ومغلقة وتتعلق بموضوع معين، فإن المنهج يتسم بطابع العموم والانفتاح وقابل للتطبيق في مختلف المجالات المعرفية. وهكذا فإن النظرية تمثل دليلا إرشاديا للمنهج، هذا الأخير الذي يعمل على تطويرها والتحقق من صدقها أو إعادة صياغتها لتلا ئم حقائق جديدة وتكون أقدر على الفهم والتفسير والتوقع.

وهكذا تظل النظرية في حالة جدل وتفاعل بينها وبين المناهج ووسائل البحث العلمي وطرقه بصفة عامة، وكل ذلك النشاط يسهم في تطوير البحث العلمي. ويكسب النظرية والمناهج مصداقية ومقدرة على الاقتراب من الظواهر، وكشفها وإدراك علاقتها وارتباطاتها المختلفة.(17)

2.2.2.1. بين المنهج والمنهجية:

الواقع أنَّ هناك عدم تفريق واضح للأخذ بالمصطلحين. فغالبا ما يستعملان عوضا عن بعضهما البعض ، ليس فقط في الكلام بل في الكتابة أيضا ونستطيع إجمال أهم نقاط التفريق بين هاذين المصطلحين فيما يلي:

1- المناهج سابقة للمنهجية.

2- المنهج أو المناهج وصف لأعمال منجزة وطريقتها في معالجة الموضوع وأساليبها ومصلحاتها، أما المنهجية فمجموعة معايير وتقنيات ووسائل يجب اتباعها في إنجاز البحث.

3- مناهج الدراسة تختلف من علم لآخر، فللأدب مناهجه، وكذلك للغة وللتاريخ وغير ذلك من علوم إنسانية أو تجريبية11. أما المنهجية فواحدة عموما.

4- المناهج مرتبطة بالمنطق وطرق الاستدلال والاستنتاج، لذلك فهي تتغير وتتعدّل من حين لآخر،على عكس المنهجية الذي أضحت جملة من القواعد الثابتة.

ومن خلال ما سبق ذكره نستطيع القو ل إن المنهج هو بمثابة مسلك يتبعه صاحبه من أجل الوصول إلى هدفه الذي حدَّده سابقًا. أما مناهج البحث فهي تتضمن الطرق والوسائل، فالطرق تتضمن الخطوات المتتابعة لمسلك الظاهرة وكشف هويتها، أما الوسائل فهي تلك الأدوات التي نمتطيها لنصل إلى الحقيقة.

والحقيقة أن المناهج في حالة تطور مستمر، حيث أنها لا تجمد على حال،كما أنها تتعدد بتعدد الظواهر محل البحث والدراسة ، فقد يصلح منهج للتعامل مع ظاهرة ، ولكنه قد يعجز مع أخرى.

3.1. مفهوم اللغة في ضوء المنهج التاريخي.

1.3.1. مفهوم المنهج التاريخي واستخدامه في المجال المعجمي

1.1.3.1. مفهوم المنهج التاريخي

في حقبة تمتد إلى بداية العقود الأولى من القرن التاسع عشر بدأ ظهور النزعة التاريخية في البحوث اللسانية، وفي السبعينات والثمانينات (عصر النحاة المحدثين)، قام العمل اللساني كله في جوهره على اقتناع صاغه هرمان بول (Her mann Paul) أعظم المنظرين بين النحاة المحدثين، رأى فيه أنه لا وجود لبحث لساني بدون نزعة تاريخية.(12)

لقد انكب النحاة المحدثون على تاريخ اللغة، مقتنعين اقتناعا راسخًا بأن المنهج التاريخي في الدراسة يوفر أنسب معالجة منهجية تحقق الأهداف النبيلة الرامية إلى المتابعة العلمية للمعرفة. وأكدوا هذا الموقف في عدد من المناسبات. (19)

الحقيقة أن هذا المنهج (Historical Method) يدور في إطار حصر التغيرات التي تصيب اللغة على مر العصور من خلال النظر في أصواتها وأبنيتها الصرفية والتركيبية والنحوية، ونظام الجملة فيها، ودلالة ألفاظها، مع محاولة تلمس الأسباب التي أدت إلى هذا التغير. ويجب على الباحث الذي يتبع هذا المنهج في معالجة إحدى الظواهر اللغوية في العربية أن يتعامل مع أقدم المصادر التي وردت فيها تلك الظواهر. وعليه أن يبدأ بالنقوش المكتوبة ثم النصوص الشعرية والنثرية الخاصة بالشعر الجاهلي، ثم النصوص الخاصة بالعصر الإسلامي... ، حتى يصل إلى آخر نص وردت فيه الظاهرة موضوع الدرس. (11)

ومن خلال ما سبق ذكره نسجل الملاحظات التالية حول الطبيعة المنهجية لهذا المسار:

1- يتناول المنهج التاريخي دراسة حالات التطور للظواهر اللغوية عبر مراحلها الزمنية، ويشمل ذلك دراسة حركة الأصوات، والبنية، والتراكيب، والدلالة.

2- يدرس المنهج التاريخي تحولات اللغة، وجوانبها البنائية، وتوزعها على شكل لهجات، ويشمل ذلك تحول اللهجة الواحدة إلى لغة عامة بين أبناء الجماعة اللغوية،كذلك تحول اللغة من الممارسة الضيقة في مجتمع واحد إلى لغة عالمية، في حالات الحروب، وفروض الهيمنة الاستعمارية، وتوسعاتها السياسية.

3- يتناول المنهج التاريخي دراسة عوامل الانحصار اللغوي عن الأقاليم الجغرافية للغة من اللغات، وتسجيل العوامل المؤثرة، والظواهر، والبصمات المأثورة عن هذه اللغة.

4- يبحث المنهج التاريخي في الصيغ، والأبواب النحوية، والجوانب الدلالية التي تخص تاريخ لغة من اللغات، أي أنه معني ببيان حياة اللغة عبر الزمن.

5- يدرس المنهج التاريخي جوانب الازدواجية اللغوية، ومستوياتها، عبر النظام التركيبي، والتحويلي، والبنائي، ويهتم بجوانب التأصيل المفرداتي (Etymology).

6- يعتمد المنهج التاريخي على المخطوطات، والنقوش المحفوظة على ألواح الطين، وأوراق البردي، والأحجار، وهو بذلك على صلة وثيقة بعلم الآثار، ومعطياته، ومناهجه. وفي هذا لا بد من اعتماد الدقة، وسلامة النصوص.

7- يعتمد المنهج التاريخي على اللغة المكتوبة (Written Language)، لأنه يعتقد بأن اللغة المنطوقة (Spoken Language) لا تمثل إلا شيئًا مخادعًا وصورة مضللة. والذي يستحق الدرس والتحليل، والمناقشة، وصولا إلى الحقائق العلمية، هو اللغة المكتوبة(13).

وعليه فإن المنهج التاريخي هو ذلك المنهج الذي يستخدمه الباحثون الذين يتطلعون إلى معرفة الأحوال والأحداث التي جرت في الماضي، فهو الطريق الذي اتبعه الباحثون في جمع المعلومات عن الأحداث والحقائق الماضية، في فحصها ونقدها وتحليلها والتأكد من صحتها، وفي عرضها وترتيبها وتفسيرها، واستخلاص التعميمات والنتائج منها، والتي لا تقف فائدتها على فهم أحداث الماضي فحسب بل تتعداه إلى المساعدة في تفسير الأحداث والمشاكل الجارية وفي توجيه التخطيط بالنسبة للمستقبل.

2.1.3.1. استخدامه في المجال المعجمي:

سوف نتناول في هذا المقام أهمية المنهج التاريخي، وما يمكن أن يحققه على صعيد الظاهرة اللغوية خاصة في المجال المعجمي.

إن من أهم نتائج هذا المنهج، وضع المعاجم التاريخية مثل: معجم (أكسفورد التاريخي Oxford English)،و(المعجم التاريخي للغة الإيطالية Dictionary)،و(مشروع معجم اللغة الاسكتلندية القديمة Bost). (20)

لقد أشار المستشرقون الذين كتبوا في التأليف المعجمي، أن العرب يحتلون في مجال المعجمات مكان المركز، سواء في الزمان أم المكان، بالنسبة للعالم القديم وبالنسبة للشرق والغرب، وقد سيطر على المعجم العربي منذ نشأته هدف أساسي وهو تسجيل المادة اللغوية بطريقة منظمة. وهو بهذا يختلف عن كل المعاجم الأولى للأمم الأخرى التي كان هدفها شرح الكلمات النادرة أو الصعبة، لذلك لو أن عربيا من القرن الخامس عشر عبر الزمن إلى بريطانيا في القرن العشرين لما كان يستغرب رؤية " معجم أكسفورد" الكبير على المكاتب، لأن العرب كان لديهم معجم (القاموس المحيط) وكان نسخه قبل اكتشاف الطباعة يعد بالآلاف. وأثنى فريق آخر من المستشرقين على (لسان العرب) و (القاموس المحيط)، أنه لا يستطيع كتابة هذين المعجمين إلا شعب عال جدا في الثقافة والأدب. (11)

وهكذا استعان المستشرقون بالمعاجم العربية في دراستهم وبحوثهم وأعمالهم العلمية، لأنها متنوعة في موضوعاتها، متعددة في فروعها فضلا عن الثقة الكبيرة التي تحيط بها، وما تميز بها مؤلفوها من اللغويين العرب والمسلمين من الدقة والأمانة العلمية.

إلا أن كل هذا لا يمنع من وجود بعض جوانب النقص والقصور في ميدان التأليف المعجمي عند العرب. قال "أولمان": « ثم بدأ علماء الاستشراق يتحسسون جوانب النقص والقصور في ميدان المعاجم العربية. ويحدد هذا القصور في النقاط الآتية:

- أول وجوه القصور، ذلك الطابع المعياري الذي تتسم به تلك المعاجم، فهي تذكر نموذجا لغويا، لكنها تهمل التطور اللغوي للنموذج المذكور.

وثانيها ضيق ومحدودية الرقعة التي تغطيها القواميس العربية إذا قورن ذلك باتساع دائرة الثقافة العربية.

و ثالث تلك العيوب فقدان النتائج عن عدم التفريق بين المعنى العام أو الإجمالي لجذر الكلمة ، وبين المعنى الفعلي الواقعي ، فللكلمات دقائق وظلال تظهر في سياق النص ، و تحدد ضيق المعنى أو اتساعه ، كما تورد المعاجم في أحيان كثيرة بدلا من المعنى الأصلي للكلمة الشيء المعني.."(18).

ولعل من أهم الجهود المبذولة في مجال التأليف المعجمي في ضوء ال منهج التاريخي ما عمله المستشرق الهولندي "راينهارت دوزي "،الذي اهتم بذكر الكلمات التي لم ترد في المعاجم القديمة ،مما شاع في آداب العربية في ما سماه "مصنفات العرب في القرون الوسطى "، و يمثل لذلك بمؤلفات ابن القوطيَّة ، وابن خلدون ، وابن بطوطة .ومن مصادره :ألف ليلة و ليلة ،كليلة و دمنة ، وبعض كتابات الأطباء و الجغرافيين و غيرهم ، وأصدر ذلك فيما سماه "ذيل المعاجم العربية"،الذي ترجم بعضه محمد سليم النعيمي في خمس مجلدات عن الفرنسية. (18)

ويوم أنشئ معجم اللغة العربية عام 1934نَصَّ في مرسوم إنشائه أنّ من أهم أغراضه :

1-أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية لمطالب العلوم و الفنون في تقدمها ،ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر . (11)

2 -أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية .

وقد كوَّن المجمع لجنة تضم كبار اللغويين العرب و المستعربين، وكان من بين

أعضائها المستشرق الألماني "فيشر" ، الذي رغب في إخراج معجم على غرار معجم أوكسفورد. إلا أن " فيشر" مات قبل أن يرى معجمه النور ، و حاول بعد ذلك المجمع تنظيم البطاقات التي تركها ، ولكن لم يستطع هذا الأخير ،إلا أن ينشر مقدمة و نموذجا صغيرا سبق للمؤلف إعدادها . (11)

تحدث فيشر في مقدمة معجمه عما رآه عيوبا للمعجم العربي المعياري و ذكر من ذلك أن المعجم القديم لا يعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة بل يقتصر على إيضاح الاتجاه النموذجي لها ، أي المعياري الفصيح الذي يتميز عن اللهجي ، فكانوا بذلك قد هدروا الاستعمال اللهجي ، و أعاقوا القوة الحيوية الدافعة إلى التقدم و التوسع ، على حد تعبير فيشر في المقدمة .(18)

وعلى هذا ،كان يرمي من وراء طموحه المعجمي ، أن تعالج كل كلمة استعملت ،و توضح أطوارها التاريخية .و توثق استعمالاتها بالعودة إلى النصوص . وقد رسم لنفسه خطة يدون فيها سيرة حياة الألفاظ حتى القرن الثالث الهجري ، مارًا بكل ما يعرفه عنها ، موازنًا لأصولها في العربية

بأصولها في أخواتها ، في خطة تستهدف معرفة المعنى الأصيل ، وما تفرع عنه : مستعينا في ذلك بشقيقات العربية ، و بالنقوش ، و القرآن الكريم و الشعر ، و الأمثال ، و المؤلفات التاريخية و الجغرافية و غيرها. (18)

2.3.1.خطوات المنهج التاريخي:

نظرا لأن المنهج التاريخي يعد أحد أنواع البحث الذي يقوم على الاستقصاء للأحداث في الماضي ، فإن طبيعة هذا البحث لا تتضمن التحكم في الظواهر ولكن تقتصر البحوث التاريخية على الوصف والتنبؤ . و عليه فإن خطوات البحوث التاريخية تتمثل في الأتي:

1.2.3.1.ضبط الموضوع واختيار مشكلة البحث:

إن اختيار مشكلة البحث التاريخي يحتاج إلى التمعن والحذر ، نظرا لأن البحوث التاريخية تعتمد في المقام الأول علي البيانات والمعلومات . فإذا لم تتوفر البيانات المطلوبة في حالة عدم كفايتها ،فإن مشكلة البحث لا يمكن دراستها بصورة متكاملة، وهذا ما سيؤثر على خطوات البحث، وبالتالي لا يمكن الحصول على نتائج دقيقة.(14)

وعليه فإن توفر المصادر والوثائق المتعلقة بالمشكلة أمر بالغ الأهمية في البحوث التاريخية.

ومما تقدم يستطيع الباحث أن يحدد مشكلة بحثه تحديدًا حقيقيا، وأن يتأكد من أن المعلومات والوثائق الخاصة بموضوع الدراسة متوفرة، مما سيساعده على جمع المادة العلمية وكذا السير في خطوات البحث بشكل جيد.

2.2.3.1.إعداد خطة البحث

يعتبر إعداد خطة البحث هو المرحلة الثانية من مراحل إعداد البحث التاريخي ، فبعد اختيار الموضوع وتحديد المرحلة الزمنية التي ينتمي إليها البحث، على الطالب أن يعد خطة ،يقسم فيها بحثه إلي أبواب وفصول ومباحث ، يتناول في كل منها إحدى نقاط الموضوع الرئيسية.(15)

مع العلم أن اختيار الخطة يتطلب في المقام الأول، الإطلاع على عدد كافٍ من المرجع والمصادر المتعلقة بالموضوع المختار.

3.2.3.1.جمع المادة العلمية والبيانات في البحث التاريخي.

إن الحصول على المادة العلمية هي أولى الأعمال التي يقوم بها الباحث لحل المشكلة التي يدرسها ويبحث فيها ، وعليه في هذا الصدد أن يختار المصادر التي جمع منها البيانات المرتبطة بالموضوع ، حتى يستطيع أن يدرس مراحل تطور الظاهرة أو الحدث موضوع البحث .(21)

-ولقد قسمت مصادر الحصول على البيانات إلى قسمين:

1.3.2.3.1.مصادر أولية وتتمثل في :

- تقارير وسجلات شاهدي العيان ، أو ممن سمعوا الحوادث بأذانهم وقت حدوثها.

- بقايا الأشياء الفعلية التي استخدمت في الماضي والتي يمكن فحصها واختيارها بطريق مباشر(21).

فالباحث عليه أن يبذل أقصى ما يستطيع من أجل الحصول على كل دليل يمكن أن يصل من خلاله إلى الماضي ، ولكنه في بعض الأحيان قد يلجأ مضطراً لاستخدام مصادر غير أولية ، مثل أن يقوم أحد الأفراد بإعطاء معلومات لم يشاهدها وقت حدوثها وهذا يعد القسم الثاني من مصادر الحصول على البيانات .

2.3.2.3.1.مصادر ثانوية:

هي المعارف والمعلومات التي يجدها الباحث في السجلات أو الصحف والدوريات العلمية وجميعها قد ترجع مصادرها إلى ثالث أو رابع، أوقد يكون خامس مصدر لنقل المعرفة.

وعليه فإن المصادر الثانوية تستعمل عادة في حالة عدم توفر المصادر الأولية ، وهي تتمثل في الكتب والمراجع المكتوبة أو المطبوعة أو بعض البيانات الإحصائية.

4.2.3.1.نقد المادة التاريخية:

يعتبر نقد المادة التاريخية أصعب العمليات التي تواجه الباحث خلال مراحل إعداد بحثه، ويقصد بنقد المادة التاريخية دراستها وتحليلها واستخراج النتائج منها. (22)

أما الغرض من هذا النقد هو التأكد من صدق المصدر، وصحة المادة الموجودة فيه أو التي نقلها.

وينقسم نقد وتحليل المادة في البحث التاريخي إلى نوعين أساسيين النوع الأول: "التحليل والنقد الخارجي (الظاهري) والقسم الآخر هو التحليل والنقد الداخلي (الباطني).

ويقصد بالنقد الظاهري التأكد من صحة الأثر التاريخي كان في شكل آثار أو وثائق، ويمكن إجراء النقد الظاهري للوثيقة بالتعرف على نوع ورقها والخط الذي استخدم في كتابتها، والقلم الذي حررت به، والحبر المستعمل في الكتابة والخاتم الذي ختمت به .إلى غير ذلك من الوسائل.(22)

وقد يتبين للباحث أنّ اسم كاتب الوثيقة غير مدوّن عليها أو أن تاريخ الوثيقة غير مثبت بها. فعليه في هذه الحالة معرفة اسم كاتب الوثيقة أو دوره، وتحديد تاريخها باستخدام عدة أساليب منها تحديد تاريخ الوقائع التي وردت في الوثيقة، وتبين العلاقات بين التاريخ الذي كتبت فيه الوثيقة، والوقت الذي وقعت فيه أحداثها.(22)

وأما النقد الباطني فيقصد به السعي إلى التأكد من مضمون أو محتوى الوثيقة، وذلك بالتأكد من حقيقة المعاني أو المعلومات أو البيانات التي اشتملت عليها بشتى الطرق المختلفة، وكذا الوقوف على ما تضمنته من متناقضات أو أخطاء، ويكون التحليل بقصد دراسة الظروف وملابسات والدوافع التي يمكن أن تكون قد أثّرت على كاتب الوثيقة لإيراد ما أورده من بيانات ومعلومات، وللتأكد أيضا أنّ هذه المعلومات ليست على سبيل الدعاية لقضية معينة أو دعوة لفكرة أو مبدأ يريد الكاتب أن يقنع الناس به ويورد لتأمين موقفه بيانات لا تستند إلى دليل أو يتجاهل بيانات أخرى ليس من صالحه إظهارها(21)

5.2.3.1.إثبات الحقائق التاريخية.

لا يوصل النقد وحده –رغم أهميته- إلى الحقيقة التاريخية ولا يثبتها بل هو مرحلة هامة في الطريق إليها. وعلى الباحث أن يقوم بجهد آخر لإثبات الحقيقة التاريخية، ولن يتسنى له القيام بهذه المهمة إلا إذا قام بعدد من العمليات التاريخية، أهمها ما يلي:

1-تصنيف المادة التاريخية التي قام بنقدها وتأكد من صحتها، بتقسيمها إلى مجموعات يكون كل منها شاملا لأحد موضوعات البحث.

2-عقد مقارنة بين المعلومات والآراء المختلفة الخاصة بكل نقطة أو موضوع على حدا، بهدف التوصل إلى بعض الحقائق التاريخية المحددة.

3-في حالة تعارض عدد من الروايات التاريخية بشأن واقعة معينة فإنه ينبغي المقارنة بينها لتحديد المؤكد منها أو أكثرها تأكيدا.

4-قد تبين بعد إجراء المقارنات حول حادثة معينة أنَّ المصادر المختلفة لم تصل جميعها إلى نتيجة محددة بشأن تلك الحادثة، فعلى الباحث في تلك الحالة أن يحاول الوصول إلى تلك النتيجة. (22)

البناء التاريخي للمادة:

يقصد بالبناء التاريخي الربط بين العناصر المختلفة للمادة، وإقامة وحدة بين تلك العناصر، بحيث لا يبدو أي منها وكأنه عنصر مستقل بذاته، أو يظهر البحث وكأنه عدة

موضوعات مختلفة ليس بينها وحدة أو رابطة.(22)

وكي تتم عملية البناء التاريخي بطريقة سليمة ينبغي إتباع الأسس التالية:

1 -تصنيف الحقائق التاريخية التي أمكن التوصل إليها بحيث تصبح كل مجموعة من تلك الحقائق مرتبطة بمرحلة تاريخية من مراحل البحث.

2 - عقد المقارنات بين حقائق كل مجموعة على حدا، ومحاولة الربط بينها وإبراز مضمونها وإيضاح ما أضافته إلى الحقائق المعروفة، ثم تحقيق نفس الشيء بين حقائق المجموعات المختلفة جميعها.

3 - سد الثغرات التي تظهر للباحث عند قيامه بعملية البناء التاريخي. فإذا لم يجد الباحث مادة لتحقيق هذا الربط بين نقاط الموضوع ، عليه أن يستخدم خياله العلمي لمعالجة تلك الثغرات.

4 - تحقيق الوحدة المطلوبة للبحث-سواء كان تقسيم الخطة زمنيا أو موضوعيا بالربط بين الظواهر المختلفة للمرحلة التاريخية التي يعالجها البحث، سواء كانت الظواهر سياسية أو اقتصادية واجتماعية. 22

تلك هي عناصر البحث التاريخي التي ينبغي علي الباحث إتباعها حتى يمكنه خدمة موضوعه وإتباع أفضل الأساليب لتقديم بحث جديد ومبتكر.

3.3.1.مفهوم اللغة في ضوء المنهج التاريخي:

يدور المنهج التاريخي (Historical Method) في إطار دراسة اللغة دراسة طولية، بمعنى أنّه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة وأماكن متعددة ليرى ما أصابها من تطور، محاولا الوقوف على سر هذا التطور وقوانينه المختلفة. (2)

ولنتصور هنا باحثا في التاريخ أراد أن يبحث ظاهرة ما في العربية ،فإنه يحاول أن يوفر لنفسه أقدم المصادر التي استعملت هذه الظاهرة، فقد يبدأ بالنقوش المكتوبة، ثم بالدواوين الشعرية والنصوص الجاهلية، ثم بالنصوص الإسلامية، وهكذا إلى أن يصل بها إلى أخر مجالات استعمالها الراهنة، مكتوبة ومنطوقة. وخلال هذه المرحلة الطويلة يصف الكلمة صوتاً، وصرفاً، ومعنى سياقاً، فيهتم ببيان ما طرأ عليها من تغيرات صوتية عبر رحلة استعمالها مكاناً وزماناً، ويبين كذلك معناها، أو معانيها الحقيقية، ثم

المجازية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد ينطلق في اعتبار ما هو حسي فيعده أقرب إلي الحقيقة، و ما هو معنوي فيعده أقرب إلى المجاز، فإن كثرت المعاني الحقيقية للكلمة، أو المعاني المجازية اجتهد في تحديد الزمن الذي يعود إليه كل معنى ، من خلال العودة إلي أقدم النصوص، وأوثقها، ويراقب الصيغ التي جاءت عليها الكلمة صرفيًا ،من خلال استعمالاتها النصية، ويحدد الاشتقاقات التي ثبت استعمالها والسياقات النحوية والبلاغية والتاريخية، التي قد يكون لها أثر خاص في إلقاء الضوء على تاريخ الظاهرة.

وهو في كل هذا يراقب تطور الظاهرة، ويرسم خطها البياني من حيث الاستعمال: قلة وكثرة، حياةً وموتًا، ثم يحاول أن يتبين القوانين التي تحكم مسار الظاهرة، والعوامل اللفظية والحضارية التي قد تؤثر فيها، وعلى هذا فإن الباحث التاريخي يعد نفسه مسؤولاً للإجابة عن تاريخ الظاهرة اللغوية: ما أصلها؟ وماذا أصبحت؟ ومتى؟ ، وإلى أين تتجه؟ (18)

ومن هنا كانت حاجة العرب إلى المنهج التاريخي لحل لغز (أصل اللغة)، هذه الإشكالية التي أدت إلى ظهور المنهج التاريخي، وإلى غيره من مناهج البحث الأخرى.

وإذا كان "علم اللغة الوصفي" يمكن أن يوصف بأنه علم ساكن statice، باعتباره يصف اللغة بوجه عام، فإن علم اللغة التاريخي: "يتميز بفاعلية مستمرة dynamique فهو يدرس اللغة من خلال تغيراتها المختلفة. وتغير اللغة عبر الزمان والمكان خاصية فطرية داخل اللغة، وفي كل اللغات، كما أن التغير يحدث في كل الاتجاهات (النماذج الصوتية، والتراكيب الصرفية، والنحوية ، والمفردات)، ولكنه ليس على مستوى واحد، ولا طبقا لنظام معين ثابت. هذه التغيرات اللغوية تعتمد على مجموعة من العوامل التاريخية، وبينما يمكن دراسة هذه التغيرات دراسة وصفية ، فإنه لا يمكن عزلها عن الأحداث التاريخية التي تصاحب وجودها. (10)

وإذا كانت الوظيفة الأولى لعلم اللغة الوصفي هي أن يصف، ولعلم اللغة التاريخي هي أن يعرض التغيرات اللغوية، فمن الصعب كثيرا الفصل بين النوعين في مجال التطبيق العملي، وذلك لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال كذلك من قبل الفرع التاريخي. (10)

وقد نالت الألفاظ عناية فائقة من قبل المشتغلين بدراسات علم اللغة التاريخي historical L'inguistique، أكثر من غيرها وأصبح لها علم قائم بذاته هو ما يسمى ب « Etymology » الذي عرف كما يأتي:

« L'étymologie est la recherche des rapports qu'un mot entretient avec une autre unité plus ancienne qui en est L'origine »3

وهو يعني البحث في علاقة مفردة بأخرى أقدم في الأصل.

كما تحث دي سوسير عن هذا العلم قائلا:

Ce qui fixe la prononciation d'un mot, ce n'est pas son orthographe, c'est son histoire –sa forme, à un moment donné, représente un moment de L'évolution qu'il est forcé de suivre et qui est réglé par des lois précises. Chaque étape peut être fixée par celle qui précède. La seule chose à considérer, celle qu'on oublie le plus, c'est l'ascendance du mot, son étymologie16

وعليه فإن المنهج التاريخي تميز في دراسته لظاهرة اللغة بمجموعة من الخصوصيات التي تفرده عن المناهج البحثية الأخرى، وأهم هذه الخصوصيات:

أولا: أن اللغة ليست بناء ثابتا مستقرا، بل هي متغيرة بحسب الظروف وتغيراتها، واختلافها مع الزمن.

ثانيا: لا يربط الباحث بين العلة والمعلول، ولا بأسباب النشوء والتكوين، ولكنه ينقل الصورة التي كانت عليها في حقبة. وما آلت إليه في حقبة لاحقة.

ثالثا: أن يقوم الباحث بتفسير الظواهر على ضوء روح العصر، ولا يقتصر على مجرد جمع النصوص وتكديسها، وإنما عليه أن يتجه اتجاها تكامليا في تناول اللغة والبحث فيها زمانًا ومكانًا.

رابعا: تحلل اللغة على ضوء الظروف الاجتماعية والفردية، والمعايير المميزة لها، والتي لها صلة بالوقائع، والأحداث ، والظروف المختلفة.

خامسا: يضع الباحث- بعد عنايته بتسجيل الظواهر اللغوية وتطورها في التاريخ –أسئلة هي من صلب منهجه. هي:

-كيف جاءت اللغة؟: بحثا عن الطريقة التي وصلت إليها إلى عهد الدراسة.
-متى ظهرت اللغة؟: الزمن الذي ظهرت فيه بخصائصها وسماتها.
-إلى أين اتجهت؟: عما وصلت إليه من استقرار أو تغيير.

سادسا: لا ينبغي للباحث اللغوي التاريخي أن يقف عن وصف الوقائع في علاقتها المتبادلة، وإنما عليه أن يدرسها من خلال حركتها وتغيرها. وتفسر هذه الظواهر بشروط استمرارها من الماضي إلى الحاضر(17).

ومن كل ما سبق ذكره يمكننا القول:

-المنهج التاريخي يدرس ظاهرة اللغة رغبة في إعادة هيكلتها عبر العصور، من خلال ما تبقى من آثارها، لتصور الحلقات المفقودة، وعلى هذا فإن البحث التاريخي في اللغة، يشبه إلى حد بعيد عالم الآثار الذي يهتدي بتصور ما فقد من قطعة أثرية، في ضوء ما عثر عليه منها، سعيًا وراء تكوين عام لهيكل الظاهرة في السياق التاريخي العام للغة.
-يدرس المنهج التاريخي اللغة باعتبارها وسيلة يصل من خلالها إلى حل العديد من الأسئلة التي تعد كما قلنا من صلب منهجه (كيف جاءت اللغة؟ متى ظهرت، إلى أين تتجه؟) ، وهذا كله رغبة في حل إشكالية أصل اللغة.

وهكذا استطاع هذا المنهج خدمة الظاهرة اللغوية من جانبها التاريخي باعتباره كان يحاول رصد كل التغيرات التي تصيبها عبر فترات مختلفة ،على مستوياتها الصوتية والصرفية ، والتركيبية، والدلالية، مع تتبع مراحل ذلك التغير. وهذا كله رغبة في كشف أسرار هذه الظاهرة العجيبة ، خاصة ونحن نعلم أن أول دافع أدى إلى ظهور هذا المنهج كان هو البحث عن أصل اللغة، فكانت الدراسة التطورية الطولية هي الملاذ الوحيد للوصول إلى حل هذا اللغز، وأيضا للوصول إلى ضبط ودراسة كل القوانين التي تصاحب كل تطور وتحول يصيب اللغة.

4.3.1. نقد المنهج التاريخي:

يرى بعض العلماء أن المنهج التاريخي يفتقر إلى درجة كبيرة من الموضوعية ،ذلك لعدم القدرة أو الإمكانية لإخضاع كافة الأحداث الماضية للتجريب أو التكرار من جهة، بالإضافة إلى ضعف قدرة المؤرخين الباحثين حسب هذا المنهج على ضبط العوامل المؤثرة من خلال تثبيت بعضها. على جانب آخر يرى بعض العلماء أن المنهج التاريخي كأسلوب علمي يعاني من بعض المشاكل التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

-تتعرض بعض الأحداث التاريخية للتلف والتزوير، وهذا ما يجعل من الصعب القول أن التاريخ يعطينا معرفة شاملة ودقيقة حول مختلف جوانب الحياة وظواهرها في الماضي.

-صعوبة تطبيق المنهجية العلمية –بمراحلها المختلفة- لتغير الأحداث التاريخية وذلك لأسباب منها طبيعة الحدث التاريخي ، وخصائصه ، وصعوبة الحصول على معلومات موثقة عنه من جهة، بالإضافة إلى صعوبة إخضاعه للتجربة من جهة أخرى.

-عجز الباحث بحسب المنهج التاريخي عن الإلمام الكافي بالمادة التاريخية، ومن مصادرها الأولية والثانوية، الأمر الذي يؤدي إلى صعوبات لا يمكن تجاهلها عند التحقق من الفرضيات أو الأسباب باستخدام التجريب.

وبناء عليه تبدو عملية الوصول إلى نتائج أو استنتاجات يمكن تعميمها بحسب هذا المنهج هي الاستحالة ، وذلك لارتباط الظواهر التاريخية بمعطيات تاريخية وبيئيّة يصعب تكرارها بدرجة كبيرة(18).

4.1.مفهوم اللغة في ضوء المنهج المقارن.

1.4.1. المنهج المقارن، ودوافع ظهوره

ليس المنهج المقارن، إلا امتدادا للمنهج التاريخي في أعماق الماضي السحيق، وينحصر في نقل منهج التفكير، الذي يطلق على العهود التاريخية إلى عهود لا نملك منها أية وثيقة.

ويتضمن المنهج المقارن أساسا وضع الصيغ المبكرة المؤكدة المأخوذة من لغات يشك وجود صلة بينها جنبا إلى جنب ليمكن إصدار حكم فيها، بعد الفحص والمقارنة بخصوص درجة الصلة بين عدة لغات، والشكل الذي يبدو أقرب صلة إلى اللغة الأم. (10)

ولعل الباحث يكون آمنا حين يقرر انتماء لغات متعددة إلى أصل مشترك، إذا وجد بينهما تماثلا كافيا في تركيباتها النحوية ومفرداتها الأساسية، وكلما لاحظ ازدياد قربها بعضها من بعض كلما اتجه إلى الوراء. (10)

وعليه فإن موضوع "علم اللغة المقارن" هو دراسة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية في اللغات المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة ، أو فرع من أفرع الأسرة اللغوية الواحدة.

ولذا يقوم المنهج المقارن Comparative method في علم اللغة على أساس تصنيف اللغات إلى أسرات(19) .

وهنا نقف قليلا عند تصنيف اللغات إلى أسرات لغوية، فهذا الأمر وليد القرن التاسع عشر، حيث لم تكن القرابة بين اللغات تدرك على نحو علمي إلى أن اكتشفت اللغة السنسكرتية ،لغة الهند القديمة. لقد قورنت السنسكريتة باللاتينية واليونانية، وثبت من هذه المقارنة وجود قرابة لغوية بين هذه اللغات. وتقدم البحث شيئا فشيئا، وقورنت لغات أوربا إلى أن اتخذت معالم أسرة لغوية كبيرة تضم لغات كثيرة في

الهند وإيران وأوربا، أطلق عليها اسم "أسرة اللغات الهندية الأوربية"، ويسميها الباحثون الألمان باسم "أسرة اللغات الهندية الجرمانية"، تضم هذه الأسرة عددا كبيرا من اللغات، ولكل لغة من هذه اللغات تاريخ. (26)

كما وجد العلماء اللغات العربية والعبرية والفينيقية والأكادية والحبشية تحمل بعض الخصائص المشتركة فاستنتجوا أنها لغات تشكل أسرة لغوية واحدة، وأنها انحدرت من أصل واحد أطلقوا عليه: اللغة السامية الأولى proto – semi tic ، ومقارنة اللغات المختلفة المنتمية إلى أسرة لغوية واحدة موضوع البحث في (علم اللغة المقارن). (26)

والذي مهد لظهور المنهج المقارن اكتشاف السير وليم جونز Sir William joens، الذي كان يعمل قاضيا في المحكمة العليا بالبرتغال للغة السنسكريتية سنة 1786، وللعلاقة بينها وبين اليونانية واللاتينية وما تفرع عنها من لغات.(11)

ومقارنة اللغات للكشف عن أصولها واندراجها تحت أسرة لغوية واحدة أساسه وجود تشابه في اطراد القوانين الصوتية والأبنية الصرفية والتراكيب النحوية، والدليل على ذلك أن التقاء اللغات في كثير من التشابه في المفردات لا يعني بالضرورة أنها تنتمي إلى أصل واحد، ومن أمثلة ذلك اللغة الفارسية التي تعد واحدة من اللغات الهندية الأوروبية، على الرغم من أن نصف ألفاظها لها أصول في اللغة العربية، وكذا الأمر بالنسبة للغة الإنجليزية ذات الأصل الجرماني، على الرغم من كثرة مفرداتها المنتمية إلى اليونانية واللاتينية.(11)

كما لم تكن الدراسات المقارنة منهجًا متبعا لدى العلماء القدامى، فإن حصلت فهي عرضية عابرة، كالإشارات المقارنة السريعة التي أشار إليها سيبويه، وأبو علي الفارسي، وابن جني وغيرهم، إلا أن هذه الإشارات لم تكن من خلال منهج محدد المعالم،واسع النطاق. (18)

أما عن اللغات السامية فلم تكن بدورها لغات مجهولة تماما، بالنسبة للعرب، فقد فطن الخليل بن أحمد (ت175هـ) للعلاقة بين الكنعانية والعربية، فقال:

"وكنعان بن سام بن نوح، ينسب إليه الكنعانيون،وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية..."(20)

كما عرف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ) اللغة السريانية، وأداة التعريف فيها، وهي الفتحة الطويلة في أواخر كلماتها فقال: " للعرب في كلامها علامات، لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه، منها إدخال الألف واللام في أول الاسم وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه في الرفع والنصب والخفض،كما أدخلوا في (الطور) وحذفوا الألف التي في الآخر، فألزموه الإعراب في كل وجه، وهو بالسريانية (طُورا) على حال واحد، في الرفع والنصب والخفض، وكذلك (اليم) هو بالسريانية (يَمَّا) فأدخلت العرب فيه الألف واللام وصرفته في جميع الإعراب على ما وصفت". (11)

وكذلك أدرك ابن حزم الأندلسي (ت456هـ) علاقة القربى بين العربية والعبرية والسريانية، فقال: "من تدبر العربية والعبرانية والسريانية، أيقن أن اختلافها، إنما هو تبديل ألفاظ الناس على طول الزمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل". (2)

وإلى مثل هذا يشير أبو حيان الأندلسي (ت 754هـ)، ويبدو أنه قد أقام حكمه في هذا الصدد على دراسة اللغتين العربية والحبشية، تتبع فيها أوجه الشبه بين اللغتين سواء في الألفاظ والتراكيب قال: "وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش في كتابنا المترجم عن هذه اللغة المسمى ب، (جلاء الغبش على لسان الحبش) في ألفاظ وفي قواعد من التراكيب النحوية كحروف المضارعة وتاء التأنيث وهمزة التعدية".(21)

ولأن هذه الإشارات العابرة من القدماء لا تعني أنهم ساروا على المنهج المقارن، ذلك أن هذا المنهج قد جاء وليد دوافع معقدة، و كان تطبيقه على العربية ذات سمة تختلف عن الإشارات السريعة التي قد نعثر عليها مبثوثة في كتب التراث اللغوي العربي فتلك الإشارات لا تعدو أن تكون إرهاصات مبكرة آل إليه هذا المنهج الذي أصبح علمًا له أصُوله وقواعدُه. (17)

2.4.1. مفهوم المنهج المقارن وأهم نتائجه:

يعرف"ستيوارت ميل "المقارنة:" هي دراسة الظواهر متشابهة أو متناظرة في مجتمعات مختلفة ، أو هي التحليل المنظم للاختلافات في موضوع أو أكثر، عبر مجتمعين أو أكثر..."(2)

فالمقارنة في أوسع معانيها إذن تعني ذلك النشاط الفكري الذي يستهدف إبراز أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر التي تجري عليها المقارنة، ومن ثم فإنَّ المقارنة تقتضي بالضرورة وجود سمات مشتركة بين الظواهر محل المقارنة.إذ لا مقارنة بين الظواهر تامة الاختلاف والظواهر تامة التشابه.

أما المنهج المقارن فهو تلك الخطوات التي يتبعها الباحث في مقارنته للظواهر محل البحث والدراسة، بقصد معرفة العناصر التي تتحكم في أوجه التشابه و الاختلاف في تلك الظواهر، و هو يستهدف التفسير العلمي عبر كشفه للعلاقات بين المتغيرات،لأنه في كشفه للعلاقة بين متغيرين أو أكثر قد يعزل تأثير بقية العوامل و المتغيرات الأخرى .فالمقارنة العلمية لا تقف عند التصنيف المبسط لأوجه الشبه والإخلاف، وإنما تسعى لإعطاء دلالات لصور ذلك التشابه والاختلاف، وإرجاع تلك الظواهر إلى العوامل القابعة خلفها،و كل هذا من أجل الوصول إلى نظريات كبرى تفسر الظواهر المختلفة،أو على الأقل التوصل إلى صياغة نظريات متوسطة من شأنها أن تفسر بعض الظواهر. (17)

والمقارنة-في رأي الأغلبية- تجري بين لغتين أو أكثر، من فصيلة أو كتلة لغوية واحدة، كالفصيلة السامية(SEMITIC FAMILY) وما تفرع منها من لغات أو الفصيلة الهندو-أوربية (INDO-EUFOPEAN FAMILY) من حيث الأصوات، وتشكيلاتها وبناؤها، ومخارجها،وصفاتها،ووظائفها كذلك دراسة البناء الصرفي و حدوده و البناء الدلالي،و القواعدي - المعياري- و العروضي والبلاغي.(20)

وحين تتجمع للباحث اللساني،من خلال العينات اللغوية، بعض السمات والخصائص المتماثلة، ويسجلها في مدونته، محاولاً الربط بين الخيوط وإعادة رصد أحجار البناء، وصولاً إلى مرحلة التجميع على هيئة عائلات لغوية" language familiers ".(20)

وفيما يلي بيانات المنهج المقارن، ومستلزماته، مع جوانبه التحليلية ومؤشرات قواعد التحكم، باعتماد دراسة "موسكاتي وزملاؤه" التي قدموها عن اللغات السامية، على الشكل التالي:

-يدرس اللسان المقارن the comparatist مجموعة الجوانب الصوتية المنتظمة " Regular Sound correspondences" الممتدة على طول مساحة (المادة اللغوية)، ويقوم بعملية تحليلها، وذلك بفرز العناصر المتشابهة وتسجيل ملاحظاته عليها.

- دراسة العدد Numéral ومضاعفاته المعتمدة في العد الحسابي (counting)، لأنه يعكس الصلة الحميمة بين المجموعات اللغوية المدروسة.

- دراسة جوانب الصرف " Morphology"، ومكوناته من الوحدات الصرفية وأنظمة السوابق واللواحق وأبنيتها التركيبية، والتنوعات الصرفية (كاسم الفاعل واسم المفعول، المفرد، المثنى...)

- دراسة جوانب النحو (syntax)، من حيث مقارنة الضمائر المختلفة لأنواع الجنس والعدد، والنكرة والمعرفة والأفعال، وحركات الإعراب المختلفة والكلمات والجمل والتراكيب، والأدوات، وحروف الجر، والأسماء، وسواها من مركبات ومقتنيات المادة النحوية.

- دراسة جوانب دلالة الوحدات اللغوية (Semantics) وتاريخ الكلمات مع بيان صلات التماثل، أو التقارب ، وطرائق الاستعمال مع استبعاد الألفاظ المستعارة من لغة أخرى. وهذا الجانب المقارن يفيد صُنَاع المعاجم في تأصيل موادهم. (20)

وهم في كل هذا مع فيض التفصيلات، يجرون المقارنات، ويسجلون درجاتها، بغية الوصول إلى حدود "اللغة الأم" أو اللغة الأصلية التي يعرفها "السعران" بقوله: "لغة ينشئها اللغوي من إعادة فرضية لبناء أصل لمجموعة مترابطة من اللغات. وهذا البناء يقوم على ربط الأشكال القديمة التي يتأكد منها مع أشكال أخرى فرضية".(20)

ويَصِلُ المقارن comparalist "للغة الأم" عن طريق استقراء النتائج التي توصل إليها بواسطة الأقيسة، وإقامة بعض القوانين الصوتية. هذه القوانين في الواقع ليس لها حتمية وجبرية قوانين الكيمياء، والفيزياء، والطب وعلم الوراثة وغيرها. وتعتمد في صورتها على الوصف المركز للظاهرة اللغوية، بعد تجزئة جوانبها إلى عناصرها المحتملة (20)

وكان من أهم نتائج هذا المنهج ما يلي:

- إنتاج مجموعة من الكشافات القاموسية الاشتقاقية للمجامع اللغوية الكبيرة مثل: قاموس (فالد بوكرني Walde Pokorny) الذي كتبه باللغة الألمانية عن اللغات الهندو-أوربية.

وقاموس (Skeet) الاشتقاقي في اللغة الانجليزية، وقاموس "Dorling Buck" في المترادفات الرومانية الهندو-أوربية. وقاموس "Diez" في اللغات الرومانية وقاموس "Meyer – Lubke".(20)

- تيسير البحث في ميادين العائلات اللغوية، حيث سعى هذا المنهج إلى مقارنة اللغات ليكشف عن أصولها. والأسر اللغوية التي تنتمي إليها. فما تشابه منها في بناه الصرفية وتراكيبه النحوية، واطرد تبادل قوانينه الصوتية. عُدَّ من أسرة واحدة، وإلا فهو خارج هذه الأسرة. (20)

ومن اجتهادات العلماء في هذا السبيل ما ذهب إليه "روسلر Rossler" من بحث للعلاقات بين اللغات السامية واللغات الحامية، وقد ردَّ فيه اللغات الساميَّة إلى أصول حاميَّة. (20)

- إعادة بناء وتقويم النصوص اللغوية غير الموثوق بصحتها، التي عالجت الكثير من الظواهر اللغوية. وقدَّمت العمال الأدبية في ميادين الشعر، والنثر ، والنقد والأنواع الأدبية الأخرى(20)

3.4.1. مفهوم اللغة في ضوء المنهج المقارن:

ينظر المنهج المقارن إلى اللغة من نفس الزاوية التي نظر من خلالها المنهج التاريخي (الزاوية التاريخية التطورية)، وأيضا يحافظ على نفس تلك الأهداف التي سطرها هذا المنهج، ونقصد بذلك هدف الوصول إلى حل إشكالية أصل اللغة، وضبط قوانين التطور والتغير اللغوي.

لقد قدَّم المنهج المقارن حلاً بديلاً اعتقد أنَّه من خلاله يستطيع حل هذا الإشكال، فاقترح أن يكون البحث اللغوي هو بحث في "الأصالة والفرعية" ،فدرس اللغات التي تندرج تحت أصل واحد أو التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة، بهدف الوصول إلى جمع الخصائص والسمات المشتركة فيما بينها. ومن أمثلة ذلك مجموعة "اللغات السامية" التي تندرج تحت أصل واحد يسمى "اللغة الساميَّة الأم".

الحقيقة أن المنهج المقارن بحث الظاهرة اللغوية في أكثر من لغة، وركَّز بشكل خاص على بحث الظاهرة في اللغات التي تنتمي إلى أصل واحد كاللغات الساميَّة أو الحاميّة أو الهندية الأوربيَّة. وكان هدفه من وراء كل ذلك التأصيل التاريخي ، كأن يُستدل على قِدم الظاهرة بالتماسها في أخواتها، أو حداثتها بتفرد اللغة المعنية بها من بين أخواتها، وفق تاريخ حياَة تلك اللغة، وقد يبحث الظاهرة في لغات تنتمي إلى أصول متنوعة ولكن غايته تبقى تأصيليَّة تطوريَّة.(18)

وعليه اعتبرت اللغة في منظور المنهج المقارن تلك الوسيلة الفعالة التي يلجأ إليها الباحث في سبيل تأصيل الظواهر اللغوية أو الحضارية، فكانت الدراسة التاريخية التطورية المقارنة إذن هي الملاذ الوحيد للكشف عن أصول اللغات واندراجها تحت أسرة لغوية واحدة ، رغبة منهم في الوصول إلى حل إشكالية أصل اللغة.

ومنذ نشأة طريقة المقارنة بين اللغات،- وهي أصلاً طريقة تاريخية- وهي تحض ى بمكانة مرموقة في علوم اللغويات، كما صارت البحوث اللغوية التاريخية وقفا على كبار العلماء والباحثين.(2)

4.4.1. نقد المنهج المقارن

لعلّ من أظهر العقبات التي تظل قائمة في وجه الباحثين الذين يس يرون على درب هذا المنهج ما يلي:

1.4.4.1.مشكلات الاعتماد على الكتابة دون النطق في وصف اللغات القديمة:

حيث واجه العلماء الذين ساروا على هذا المنهج عقبة كبيرة، تمثلت في تعاملهم مع نصوص قديمة في شكلها المكتوب لا المنطوق، وقد زاد من صعوبة هذه العقبة أنَّ كثيرا من اللغات قد اندثرت من واقع الاستعمال اللغوي، ولذا كان من الصعب معرفة كيف كان ينطق العرب الجنوبيون كلمة مكتوبة بالحروف الصامتة نحو:(كتب)، فهل هي كَتَبَ أم كُتِبَ أم كَاتبَ...، ولذا كان العلماء يستعينون في حل هذه المشكلة بالتركيز على دراسة هذه اللغات في ضوء معرفتهم بالعربية ولهجاتها، بوصفها حية منطوقة، فضلاً على قدمها.(18)

2.4.4.1. انقراض اللغة السامية الأم:

ومن هذه المشكلات انقراض اللغة السامية الأم، وعدم الوقوف على تاريخ دقيق يمثّل الفترة الزمنية التي عاشت فيها هذه اللغة قبل أن تتفرع عنها بناتها، ولذا فقد تطرّق الشك في أذهان بعض الباحثين إلى وجود هذه اللغة أصلا." (18)

3.4.4.1. انقراض الكثير من اللغات الساميّة:

حيث انقرضت الكثير من اللغات التي عُرفت بالساميّة، ولعلّ بعضها لم يُكتشف بعد وحتى اللغات التي اكتشفت منها مؤخرًا كالأوغاريتية (اكتشفت سنة 1928) والأكاديّة (اكتشفت حوالي منتصف القرن التاسع عشر) فإن الدراسات التي أجريت حولها ما تزال في حاجة إلى مزيد من التمحيص والإضافة.(18)

4.4.4.1. الجهل بالحقب التاريخية للغات الساميّة:

وحتى اللغات السامية المعروفة كالعربية مثلا، فإن كثيراً من حقبها التاريخية ما تزال مجهولة، حيث لم تصل أيدي الباحثين في العربية إلا إلى فترات زمنية حديثة نسبيّا.

5.4.4.1. عدم القدرة على تحديد الأصيل من الدخيل في اللغات الساميّة:

من المعلوم أنّ لكل لغة جوانب ذاتيَّة في التطور والنمو، وثمَّة جوانب أخرى تعتمد فيها اللغة على سواها من اللغات، فتستعير منها، أو تتأثر بها وهنا تكمن الصعوبة في معرفة ما هو ذاتي، وما هو دخيل، وبخاصة في مجال اللغات المتقاربة أصلاً.

ولعلّ في هذا ما يفسر لنا صعوبة التعرف على الكلمات التي تبادلتها اللغات الساميّة فيما بينها.

إنّ هذه اللغات تشترك أصلاً في كثير من طرائق أبنيتها الصرفية والنحوية وحتى في أساليبها الدلالية والبلاغيّة، فأفعال من نحو: كَتَبَ، وَقَرَأ، ودَرسَ، وأمَر... تجدها مشتركة بين كثير من هذه اللغات فهي إمّا كلمات موروثة من اللغة الأم، أو هي مستعارة من إحدى هذه اللغات إلى الأخرى، وقد انسجمت مع متطلبات اللغة الأخرى (الجديدة) لأن الشروط اللغوية الجديدة لحياتها لا تختلف أو لا تكاد تختلف عن الشروط القديمة التي كانت تحياها أصلا . (18) ولا يستطيع الباحث أن يُلْزِم أحدا بحجج لغوية محضة، يسلم عن طريقها بأن كثيرا من هذه الكلمات تنتهي أصلا إلى هذه اللغة، ثم انتقلت منها إلى سواها، ولذا كنا ترى الباحثين يلتمسون لذلك أدلة وقرائن من خارج اللغة، كالمستوى الحضاري أو سوى ذلك من أدلة ظنية تحتمل الشك.(18)

هذه هي بعض العقبات التي واجهت العلماء الذين ساروا على ضوء هذا المنهج. إلا أنّ كل هذه المشكلات لا يمكن أن تقلل من أهمية المنهج المقارن، فلا شك أن قواعده جد مفيدة في تحقيق الكثير من الوسائل العلمية التي تعترض سبيل المعرفة العميقة للغة العربية، وأي من شقيقاتها.

هذا هو المنهج المقارن، وتلك هي حدوده، وقد تأثر به العديد مmن درسُوا اللغات السامية، وقطعوا فيه شوطا ليس بالقصير، وتوصلوا من خلاله إلى نتائج طيبة.

بيد أن ثمة العديد من الأسئلة التي تظل قائمة في وجه الباحثين الذين ساروا على هدي المنهجين التاريخي والمقارن ولعلّ من أهمها ما يلي:

هل اللغة زمانٌ فحسب؟، وهل بإمكان المنهج التاريخي والمقارن أن يكشف عن أسرار الظاهر اللغوية وهو يتعامل مع نصوص قديمة في شكلها المكتوب لا في صورتها المنطوقة، خاصةً وأنّ كثيرًا من اللغات القديمة قد اندثرت من واقع الاستعمال اللغوي؟ وهل استطاع أيضا البحث التاريخ الطولي ، أو البحث في الصالة والفرعية الكشف عن أسرار الظاهرة اللغوية؟

هذه الأسئلة وأخرى أدت إلى تغيير الوجهة في البحث اللغوي ، وبالتالي ساهمت في ظهور عدة مناهج نظرت إلى الظاهرة اللغوية من زاويا مغايرة تماما لما كان معهود سابقًا.

الفصل 2
مفهوم اللغة في ضوء مناهج البحث حديثًا.

ليس هناك بحث علمي دون منهج واضح، يتمُّ وفقًا لقواعده دراسة الموضوع ومعالجة إشكالاته، حيث يتحول البحث إلى مجرد حصر للمعلومات، وتجميع للمعارف الإنسانية دون رابط يجمعها أو وسيلة تمكّن من استغلالها علميًا. ومن ثم فإنّ البحث العلمي يقوم على منهج منظم للتفكير العقلي.

ولقد تعددت مناهج البحث في اللغة ولعلَّ من أهم وأظهر تلك المناهج التي أسهم في انضاجها الباحثون في العصر الحديث نجد:

- المنهج البنيوي الوصفي
- المنهج الإحصائي
- المنهج الوظيفي
- المنهج التوليدي التحويلي
- المنهج السيميائي
- المنهج التداولي.

وسوف نعالج في هذا الفصل كل منهج من هذه المناهج ، محاولين أولا ضبط الأسس والخطوات والأدوات التي سار عليها كل واحد، ومجتهدين ثانيًا في استنباط مفهوم للغة في ضوء كل منهج.

1.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج البنيوي الوصفي.

1.1.2. المدرسة البنيوية وأهم اتجاهاتها.

1.1.1.2 البنيوية الوصفية:

بلغت الدراسات اللغوية الحديثة والمعاصرة درجة من الدقة والضبط والموضوعية والشمول ما أتاح لها أن تتبوأ مكانًا مرموقًا بين فروع المعرفة الإنسانية، بل إن هذه الدراسات أخذت زمام المبادرة في هدم الأسوار التي أقيمت بلا مبرر علمي واضح، بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، ذلك أن اللسانيات التاريخية كانت تعد اللغات كائنات حية شأنها في ذلك شأن الأجناس البيولوجية. وهو ما عبر عنه بصدق "ليفي شتراس" عالم الأنثروبولوجيا حين قال: "أننا نجد أنفسنا إزاء علماء اللغة في وضع حرج، فطوال سنوات متعددة كنا نعمل معهم جنبًا إلى جنب. وفجأة يبدوا لنا أن اللغويين لم يعودوا معنا وإنما انتقلوا إلى الجانب الآخر من ذلك الحاجز الذي يفصل العلوم الطبيعية الدقيقة عن العلوم الإنسانية والاجتماعية،... وهكذا أخذ اللغويون يشتغلون بتلك الطريقة المنضبطة التي تعودنا أن نعترف باستسلام أنها وقف على العلوم الطبيعية وحدها"(22).

ولم تكتسب العلوم اللغوية هذه الصفة العلمية إلا بعد أن أدركت الفرق الجوهري بين الدراسات التاريخية المقارنة للغة، والدراسات الوصفية للبنية اللغوية في ذاتها، وهو فرق يتمثل في النظرية الجزئية للغة والنظرية الكلية الشاملة لها. ولذلك نجد أن "دي سوسير" (1958- 1913) حرص في بداية محاضراته على أن يوجز تاريخ الدراسات اللغوية في أوربا حتى عصره، لكي يبين الفرق بين الوصفية البنيوية التي أرسى هو أصولها، وبين ما سبقها من الدراسات. وهو يوجز هذا التاريخ في مراحل ثلاثة هي:

المرحلة الأولى: مرحلة النحو، بدأت هذه المرحلة –في نظره- من جهود اليونانيين ثم تعمقت أكثر على يد الفرنسيين بخاصة في نحو "بور رويال" (Port –Royal) فهي دراسة قائمة في ذاتها على المنطق وأدواته (المفاهيم والاصطلاحات)، وتكاد تخلو هذه الدراسات من أي تصور علمي واقعي للظاهرة اللغوية، من حيث هي أداء وانجاز فعلي للكلام . فكان الهدف من هذه الدراسة هو وضع معايير قارة بناء على مبدأ الخطأ والصواب.إنها دراسة معيارية ليس إلا.(23)

المرحلة الثانية: مرحلة الفيلولوجيا (Philology). وقد كانت هذه الدراسة تسعى إلى شرح النصوص القديمة وتفسيرها، إذ تعتمد اللغة وسيلة وليست غاية في ذاتها، فهي دراسة تتميز بالقدم ، حيث اقترنت نشأتها الجينية بالنصوص المكتوبة باللغتين اليونانية واللاتينية (30) فموضوع الفيولولوجيا الأساسي ليس اللسان من حيث هو غاية في ذاته، وإنما من حيث هو وسيلة لمعرفة ما هو خارج عن النظام اللساني نفسه.

و الفيولولوجيا –كما هو معروف- تعكف على دراسة الخطاب المكتوب، وتقصى من اهتمامها الخطاب المنطوق، وعليه فإنها من حيث هي منوال يتعامل مع الظاهرة اللغوية تظل بعيدة عن طبيعة

الدراسة العلمية والموضوعية للسان باعتباره ظاهرة اجتماعية، يجب أن تُ ـدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها. (30)

المرحلة الثالثة: مرحلة الفيلولوجيا المقارنة (comparative philology)، وفيها إكتشف اللغويون أن اللغات يمكن أن تُقارن بعضها ببعض. ففي عام 1816، نشر فرانز بوب " Fronz-Bopip"، كتابه عن التعريف في اللغة السنسكرتية، قارن فيه بين هذه اللغة واللغات الألمانية واليونانية واللاتينية، ولم يكن "بوب" أول من لاحظ هذا التشابه بين هذه اللغات، وإنما سبقه الانجليزي "ويليام جونز" (W. Jones) (ت 1794)، رغم أن ملاحظاته الجزئية المعزولة لم تكن كافية لإثبات أهمية ودلالة المقارنة اللغوية حتى عام 1816. (29)

لقد كان لهذا التوجه الجديد نحو المقارنة بين اللغات ، الفضل في فتح حقل خصب من حقول المعرفة الإنسانية ، إلا أنه لم يتوصل إلى سبر أغوار الظاهرة اللسانية صبرًا عميقا، بل ظل يتحرك خارجها في دوامة التحول العضوي للسلالات اللغوية، دون أدنى جهد في خرق البنية الداخلية للسان البشري. (30)

هذه هي المعالم الكبرى التي شاء دي سوسير أن يقِفَ عندها في مراجعته لتاريخ الفكر اللغوي قبل عصره. والتي عمد في نهايتها، إلى طرح نظريته التي دار حول أصولها التفكير اللغوي الحديث والمعاصر، والتي طرحت لأول مرة، الحل الذي كان يبحث عنه، ويتمثل ذلك فيما يمكن أن نطلق عليه بالمنهج الوصفي البنيوي لدراسة اللغة.

أما عن مهمة اللسانيات البديلة في نظر دي سوسير فتنحصر في المجالات التالية:

- وصف كل الألسنة والتأريخ لها، أي القيام بالتأريخٍ للعائلات اللغوية، وإعادة بناء أصول كل عائلة.

- البحث عن القوى الفاعلة بشكل دائم في كل الألسنة، واستنباط القوانين العامة التي يمكن لنا أن نبرر بها كل ظواهر التاريخ الخاصة.

- تميز اللسانيات عن بقية العلوم، وتحديدها لنفسها بنفسها.(30)

إن التحول العلمي الذي جاء به دي سوسير في مجال البحث اللساني يتبدى في الثنائيات التي تشكل المحور المعرفي للمنهج المتوخى، ومن هذه الثنائيات ما يلي:

1.1.1.1.2.ثنائية: تاريخي /آني

إن الفرضية التي يتأسس عليها البحث العلمي للظاهرة اللغوية عند دي سوسير تتبدى في أن اللسان (Longue)، من حيث هو نظام تواصلي يمتلكه كل فرد ينتمي إلى مجتمع له خصوصيات ثقافية وحضارية متجانسة، يعكس حقيقتين:

أ- حقيقة آنية: من حيث أن اللسان واقع قائم بذاته، يمكن لنا إخضاعه للدراسة العلمية بكل مواصفاتها بمعزل عن مظاهر التعاقب التاريخي. (30)

ب- حقيقة تاريخية: لأن اللسان حدث متغير، يتكون من رواسب الاستعمال الفعلي للكلام عبر الحقب الزمنية المختلفة. . الأمر الذي جعل دي سوسير يميز بين منهجين في التعامل مع الظاهرة اللغوية:

المنهج الأول: هو المنهج التاريخي الذي يهتم بالتحول المرحلي للسان عبر الحقب الزمنية المختلفة.

المنهج الثاني: هو المنهج الوصفي، الذي يتناول الظاهرة كما هي في الواقع اللغوي(30)

وعليه فإن اللسانيات في نظر دي سوسير تتفرع إلى فرعين:

1/- لسانيات تاريخية، تطورية (دياكرونية Diachronique): وهي الدراسة القائمة على التعقب التطوري للمسار التحولي للغة عبر التاريخ.

2/- لسانيات سكونية، آنية (سانكرونية Synchronique): وهي الدراسة التي تهتم بالنظام اللساني في ذاته،و من أجل ذاته في حالة لغة بمعزل عن التاريخ.

ولتقريب هذه الفكرة راح دي سوسير يمثل لها بالدراسة التشريحية للبنات، فهو يرى أننا إذا ما قطعنا نبتة ما قطعا طولية (عموديا)، نلاحظ نمو الألياف في حالة تطورية فقط، أما إذا قطعناها قطعا أفقية، فإننا نرى في هذه الحالة جميع الألياف في تجمعها على سطح معين. ونستطيع بذلك حصر العلاقات القائمة بينها. ومن ههنا فإن هذه الحقائق لا نستطيع إدراكها من القطع العمودي (30)

وهكذا أعطت البنيوية للتفسير البنيوي الأفقي الثابت أولوية عن التفسير التاريخي العمودي التطوري، ذلك لأنه يكشف عن كنه الظاهرة اللغوية ويستطيع معرفة العلاقات التي تربط عناصرها. ورغم ذلك فإن كلا المنهجين مهم في الدراسة اللغوية، وينبغي فقط عدم الخلط بينهما عند البحث، إذ أنَّ لكل منهما مبادؤه الخاصة: فالمنهج الآني منهج استقرائي ساكن، والمنهج الزماني منهج حركي تطوري. والمؤكد أن دي سوسير لم يرفض البتة اللسانيات الزمانية، غير أنه ألح فقط على الفصل بينهما، كي لا تدحض النظرية التطورية الوصف الآني، وكي تثبت كل واقعة في مجالها الخاص.

2.1.1.1.2.ثنائية: لسان/ كلام

إن المنهج الذي يتبناه دي سوسير جعله يميل إلى الشيء المتجانس في ذاته، فانبرى منذ البدء يميز بين مصطلحات كانت مألوفة ، وشائعة في الفكر الانساني وهي:

أ- اللغة: (Langage) وهي الملكة الإنسانية المتمثلة في تلك القدرات التي يمتلكها الإنسان دون سواه من الكائنات الحية الأخرى التي تسمح له بالإنجاز الفعلي للكلام بواسطة نسق من العلامات. (30)

ب- اللسان (Langue): وهو نظام تواصلي، يمتلكه كل فرد متكلم –مستمع- ينتمي إلى مجتمع لغوي متجانس.

ج- الكلام (Parole): وهو الإنجاز الفعلي للغة في الواقع. (30)

وقد أقصى دي سوسير من اهتماماته المصطلح الأول، وهذا الاقصاء يجد مبررا له في أن اللغة، بوصفها ظاهرة طبيعية عامة، تتميز بتعدد عناصرها، فهي تنتمي إلى مجال فردي ومجال اجتماعي مما يجعل تصنيفها، واخضاعها للوصف والتحليل صعبا، بل مستحيلاً، فهي حينئذ تستعصي على الباحث اللساني الذي يسعى إلى تناولها من وجهة نظر واحدة، لأنها محل اهتمام لكثير من التخصصات(24).

ولذلك كان من الأنجح –في نظر دي سوسير- التمسك بالمصطلح الثاني، أي اللسان لأنه يتميز عن سواه بتوحد بنيته وانسجام عناصرها. إنه نتاج اجتماعي لملكة اللغة، كما أنَّه مجموعة من الأعراف الضرورية التي يستخدمها المجتمع لمزاولة هذه الملكة عند الأفراد. (30)

وإذا كان اللسان خارجًا عن إرادة الفرد، وليس بإمكانه أن يتغير، أو يجرى عليه تعديلا في أي مستوى من مستوياته، فهو يسعى دائما إلى ترجمة قوانينه في إنجازه الفعلي للكلام، باعتبار أن الأداء الفعلي هو الوسيلة العلمية التي تعكس نمط هذا اللسان، وتحققه في الواقع اللغوي. (30)

3.1.1.1.2.ثنائية: دال /مدلول

يقوم المنهج العلمي الذي تبناه دي سوسير على فكرة النظام اللساني (Système Linguistique)، الذي يتكون من عناصر دالة منسجمة فيما بينها تمثل بنيتة الجوهرية، وهذه العناصر هي العلامات (Signes). تعد العلامة وحدة النظام اللساني، وهي تتكون من صورة سمعية (image acoustique) ومفهوم (concept)، ثم يصرح دي سوسير بالإبقاء على مصطلح العلام ـة للدلالـة علـى الكل، وتع ـويض /مفه ـوم/ و /صورة سمعي ـة/ بلفظتي (دال/ و مدلول) / Signifiant Signifié. (30)

فالعلامة اللسانية انطلاقا من هذا التصور، هي كل يتكون من وجهين: دال ومدلول، يصعب علينا الفصل بينهما، لأنهما يرتبطان بعلاقة تواضعية. ثم يقر أن العلاقة التي تربط بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية (Arbitraire)

تظهر الاعتباطية – في نظر دي سوسير- في أن دالاً معينا يطابق مدلولا معينا في الواقع، ومن هاهنا تصبح العلامة اللسانية تقسيمًا للواقع عن طريق التواضع لا غير، فهي بمعنى الاتفاق والاصطلاح . وعلى الرغم من ذلك، فإن دي سوسير يقر بوجود حالات جزئية استثنائية، تكون فيها العلاقة بين الدال والمدلول علاقة غير اعتباطية، كما يلاحظ في بعض الكلمات الطبيعية (ONAMATOPEES)، لكن هذه العلامات تبقى محدودة واستثنائية لا تُكَوِن نظامًا لسانيًا، وأن هذه الحالات ذات اهتمام ثانوي ونشأتها هي الآن محل خلاف. (30)

لذلك فإن الاعتباطية في العلامة اللسانية لا تعني أنها عائدة إلى اختيار حر يقوم به متكلم اللغة، وإنما يعني بالاعتباطية أن الدال غير معلل، أي اعتباطي بالنسبة لمدلول لا تربطه به أية علاقة في الواقع(25).

1 - مفهوم مصطلح البنية:

لم تنل أية ظاهرة من الاهتمام والدراسة قدر مانالـه مفهوم "البنية" في القرن الحالي، حيث أصبح هذا المفهوم يحتل مكان الصدارة في مختلف الدراسات الإنسانية الحديثة، سواء أكانت هذه الدراسات

نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو لغوية أو رياضية وغيرها. وأصبحنا نجد أن الباحثين العاملين في إطار هذه المفاهيم يتحدثون عن بنية نفسية وأخرى رياضية ومنطقية وثالثة لغوية...إلخ. مما يشير إلى أن مفهوم البنية لم يقتصر على الدراسات اللغوية، وإنما امتد ليشمل مختلف العلوم الانسانية دون استثناء(26).

يقول "أوسوالد ديكرو": «إذا كنا نقصد بالبنية كل نظام مطرد (Organisation régulière) ، فإن الكشف عن البنى (التراكيب) اللغوية قديم جدا قدم الدرس اللغوي...». فأن تكون اللغة بنية متماسكة من العناصر أو الوحدات ليس بشيء جديد ، لأننا نجد صداه في مباحث لغوية قديمة مثل موضوع أقسام الكلام، ترتيب الصيغ الصرفية حسب مقولات الزمان والمظهر والضمير(27).

بناء على ذلك يكون مفهوم البنية بمعنى الانتظام حاضرا في أقدم الدراسات النحوية (28) "Structure".

أما مصطلح "البنية" في أصله اللغوي، فهو مشتق من الكلمة اليونانية" Struere" التي تعني البناء أو الطريقة التي يقوم عليها بناء ما، ثم امتد معنى ومفهوم الكلمة ليشمل وضع الأجزاء في حيز ما من وجهة النظر الفنية المعمارية. وتشير المعاجم الأجنبية، إلى أن فن العمارة استخدم هذا المفهوم منذ القرن السابع عشر. (15)

أما أصلها في اللغة العربية، فيعود إلى الفعل الثلاثي "بنى، يبنى، بناء" ومنه جاءت كلمة بنية، وسميت النزعة المعتمدة على هذا المفهوم بالبنيوية " Structuralisme"، أو البنائية كما هو مستعمل عند "فؤاد زكريا" ، أو عند "صلاح فضل" على سبيل المثال. والأصل العربي القديم للكلمة، يتضمن معنى التشديد والبناء والتركيب، وتجدر الإشارة هنا إلى أن "القرآن الكريم"، استخدم هذا الأصل على صورة الفعل "بنى" والأسماء "بناء" و"بنيان" و"مبنى"، لكن لم ترد فيه ولا في النصوص القديمة كلمة "بنية". كما تح ـدث النحاة الع ـرب على المبنى والمعنى وكذلك عل ـى المبنى للمعل ـوم والمبنى للمجه ـول. (15)

أما مفهوم البنية في معناها الاصطلاحي فتعني الكيفية التي تنتظم بها عناصر مجموعة ما، أي أنها تعني مجموعة العناصر المتماسكة فيما بينها، بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الأخرى، وبحيث يتحدد هذا العنصر بعلاقته بتلك العناصر. من هنا يرى "كروبر Kroeber" أن أي شيء بشرط أن لا يكون عديم الشكل " amorphe" يمتلك بنية ، فكل شيء مبني بصورة ما (29). أما في دائرة المعارف "لاروس la rousse"، فقد أوردت أن البنيوية ليست مذهبًا ، كما أنها ليست منهجًا وإنما هي اتجاه عام للبحث في العديد من العلوم الانسانية بردها إلى كل منتظم (Ensemble organisé)(30).

وقد اتفق "كلير امبار André clermbard"، مع ما أوردته دائرة المعارف (لاروس) ، ويرى أن البنيوية ليست نظرية فلسفية بمعنى الكلمة ، وإنما هي تيار فكري معاصر موجود لدى الفلاسفةأمثال "فوكوه Michel foucauet ، صاحب الكلمات والأشياء و (لاكان lacon)، صاحب "الكتابات Ecrit". (37)

أما عالم النفس السوسيري "جان بياجه jean Piaget"، فيقول في تعريفه للبنية: "هي مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة أو تعتني بعلبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها أو أن تستعين بعناصر خارجية، وبكلمة موجزة تتألف البنية من مميزات ثلاث: الجملة، والتحولات، والضبط الذاتي"(31).

فالبنيوية إذن بتعبير آخر هي الكل المؤلف من عناصر متضافرة مترابطة، أي أنها تتألف من العلاقات المجردة التي تقوم بين عناصر وتحولات منظمة مستقلة نسبيا عن المؤثرات المختلفة، فميزة الجملة (totalité) تدل على أن البنية تتكون من عناصر ولكن هذه العناصر تكون خاضعة لقوانين تميز المجموعة كمجموعة، أي أنها تضفي على الكل خصائص المجموعة المغايرة لخصائص كل عنصر من العناصر، أما ميزة "التحولات transformation فتعنى أن التغيرات التي تطرأ على البنية ما تؤدي إلى إحداث تغيرات جوهرية في هيكلها العام باعتبار أن الجملات البنيوية تتمسك بالقوانين التي تتركب منها، في حين نجد أن ميزة الضبط الذاتي Autoréglage تعني أن البنية تكتفي بذاتها ولا تتطلب مؤثرات أو عوامل خارجية من أجل الحفاظ على هيكلها العام من الاندثار. (36) وبهذا المعنى نجد (لالاند) A.lalande يقدم في معجمه تعريفًا للبنية يؤدي إلى الفهم المشار إليه، إذ يقول: "بمعنى خاص وجديد تستعمل البنية من أجل تعيين كل مكون من ظواهر متضامنة، بحيث يكون كل عنصر فيها متعلق بالعناصر الأخرى ، ولا يستطيع أن يكون ذا دلالة إلا في نطاق هذا الكل، هذه الفكرة هي الأساس فيما نسميه أيضا بنظرية الصيغ.

أما فولكييه Folquié فيرى: "أن الدراسات والبحوث في مجال العلوم الانسانية ينبغي لها أن تنشد الطريقة البنيوية، بمعنى توضيح الموضوع الذي تود دراسته بوضعه داخل البنية حيث كان موجودا ومتضمنًا من قبل". (36)

أما ليفي شتروس فيقول: " في الواقع نرى أن النماذج التي تشتق اسم بنية يجب أن تلبي حصرًا شروطًا أربعة ، أولا: تتسم البنية بطابع المنظومة، فهي تتألف من عناصر يستنتج تغير أحدهما تغير العناصر كلها.

ثانيا: كل نموذج ينتمي إلى مجموعة من التحولات التي يطابق كل منها نموذجا من أصل واحد بحيث أن مجموع التحولات يشكل مجموعة من الخارج.

ثالثا: إن الخصائص المبينة أعلاه تسمح بتوقع طريقة رد فعل النموذج عند تغير أحد عناصره، وأخيرًا يجب بناء نموذج بحيث يستطيع تسويغ جميع الوقائع الملاحظة..."(32)

ويرى جيل دولوز (Gilles deleuze) أنَّ المعيار أو المقياس الأول للبنيوية هو اكتشافها لنظام ثالث ولعهد ثالث، هو الرمزي Symbolique، ورفض مقاربة أو تشبيه الرمزي بالخيالي أو التصوري ، وحتى ما هو واقعي يكون البعد الأول للبنيوية. (36)

هذه التعريفات المذكورة ليست على سبيل الحصر، وإنما انتقينا منه ما رأينا أنه يخدم البنيوية مصطلحًا ومفهومًا، شكلاً ومضمونً

2ش- مفهوم الوصف Description:

هو الأسلوب العلمي الذي تبتغيه البنيوية منهجًا، لذلك قيل المنهج البنيوي الوصفي يعني عندها الموضوعية، حيث أنَّ الوصف اللغوي يجب أن يكون بعيدًا عن الذاتية، وخوفًا من السقوط فيها رفضت البنيوية الفرد المتكلم والسياق والظرف الذي تنتج فيه الإرساليات (التواصل).

فالوصف في المدرسة البنيوية ما هو إلا تفكيك للبنية اللغوية إلى عناصرها المكونة الأولى وتصنيفها دون شرح للأسباب التي جعلتها تكون على هذا الشكل دون الآخر.

2.1.1.2.الاتجاهات اللسانية البنيوية:

لقد بدأت البنيوية تطورها في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية في آن واحد، لكن دون مزيد من الاتصال المتبادل بينهما، أما عن الفارق الجوهري، فيتمثل في أن اللسانيات الأمريكية اختلفت عن اللسانيات الأوربية من حيث المنهج المتبع والمادة المدروسة ، ذلك أن المدارس الأوربية لم تبدأ من الدرجة الصفر، وإنَّما من الفكر اللغوي العريق الذي ظهر بظهور الدراسات الإغريقية، واستمر حتى القرن التاسع عشر، حيث ظهرت اللسانيات التاريخية والمقارنة التي اعتنت بدورها باللغات الكلاسيكية قبل اللغات الأوربية الناشئة. (19)

أما اللسانيات الأمريكية، فقد انطلقت من الأنثرويولوجيا والدراسات الحقلية التي اهتمت بتدوين وتصنيف اللغات الهندية الأمريكية المتناثرة في الولايات المتحدة ، وذلك خشية انقراض هذه اللغات، وهكذا فإن هذه الدراسات تعتمد على اللغات المنطوقة، و على الأشكال اللغوية ، بعيدة كل البعد عن إقحام المنطق أثناء عملية التفسير. (34)

ضف إلى ذلك أن اللسانيات الأوروبية قامت على أساس من تأثير أفكار دي سوسير، على حين أن هذا الأخير كان مجهولاً من الناحية العلمية في أمريكا.(19)

العالم اللغوي السوسيري "فرديناند دي سوسير FERDINAND DE SAUSSUR (1857-1913)، الذي يعد المؤسس الحقيقي للحركة البنيوية الأوربية الحديثة من خلال كتابه الهام (دروس الألسنيَّة العامة) COURS de L'linguistique générale، والذي صدر عام 1916، ضمَّنه دراسة علمية مستفيضة فصَّل فيها بين (اللغة والكلام)، بحيث أصبحت اللغة عنده نسقا من العلامات، هذه العلامة تتكون من صورة صوتية هي (الدال) وتصور ذهني هو (المدلول) ، قال: " لبيان أن اللغة لا يمكن أن تكون إلا منظومة من قيم مجردة يكفي الأخذ في الحسبان اعتبار العنصرين اللذين يشاركان في وظيفتهما وهما: الأفكار والأصوات... فكل شيء إنما يتم بين الصورة وذلك ضمن حدود الكلمة مقدَّرة كمجال مغلق موجود في ذاته"(33).

ثم تواصلت بعد هذا جهود علماء اللسانيات، وتطورت الدراسات اللغوية تطورا كبيرا مع اسهامات الروس ، مثل جاكوبسون (Jakobson)، وتروبتسكوي (TRUBET ZKOY)، وكارشنسكي (KARCEVSKY)، وكذلك اسهام الفرنسي اميل بنفنست (EMIL Benveniste)، والأمريكي بلوم فيد (Bloomfield)، إضافة إلى علماء آخرون مشهورين أمثال تشومسكي (Chomsky) ، وهما سلاف(hilem slave) وغيرهم كثير. (36)

وهناك ثلاثة أنماط من البنيوية الأوربية وكان أول هذه الأنماط التي يحتلها أتباع دي سوسير:

1-المدرسة السويسرية (جنيف) Geneva School:

وقد تعرفت المدارس اللسانية على أفكار هذه المدرسة في ميدان دراسة اللغة، باسم مدرسة جنيف Geneva School، أو مدرسة زيورخ Zurich School، ومن أعلامها المشاهير اللساني فردينان دي سوسير، الذي كان أول من زود علم اللغة بأسس وأصول سليمة، قامت على أنقاضها مدرسة لغوية ، عُرفت في تاريخ الفكر اللغوي باسم "مدرسة جنيف" (20) وفي البيان الآتي عرض للأسس التي نادت بها هذه المدرسة، حيث اعتبرت فيما بعد مرتكزات للدرس اللساني الحديث:

1 -دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها (التواصل"اجتماعي" ، التواجد "محتوى تاريخي و ثقافي"، النظام "إشارات متعددة") .

2- مبدأ ثنائية التركيب.

3- الدراسة المتعاقبة والدراسة التزامنية.

4- الدراسة الوصفية للغة هي أساس المشروع اللساني العلمي، باعتبار أنها ضرورية للباحث قبل القيام بالدراسة التاريخية.

5- المحور الاستبدالي (العمودي) ، والمحور الركني (الأفقي) في دراسة اللغة حيث تظهر التراكيب موزعة بشكل يعكس طبيعة العلاقات، وتجاورية العناصر. (20)

6- العلامة اللغوية: اللغة عند دي سوسير علامة مخزونة داخل دائرة ذهنية، وهدف اللسانيات هي دراسة هذه العلامة وتحليل مكوناتها، وعناصرها، وتسجيل درجة ارتباطها وعلاقتها، ومدى تأثيرها بما جاورها من العلاقات فردية، أو المركبة. كما ميز دي سوسير عند دراسة (العلامة اللغوية) بين المدرك الذهني والصورة السمعية، (20) حيث قال: "إن العلامة اللسانية لا تربط شيئًا باسم بل تصورًا بصورة سمعية....". (40)

أما نوع العلاقة بين العلامة اللغوية، وما تؤشره، فهي عرفية ، إذ لا توجد علاقة مباشرة بين الدال والمدلول.

أما النمط الثاني فيتمثل في:

2 -أعمال مدرسة براغ (prague school): حيث بعد ظهور أفكار دي سوسير نشأت في تشيكو سلوفاكيا مدرسة لغوية تعرف باسم مدرسة براغ، وكان وراء ظهورها عالمان من أكبر علماء هذه المدرسة، وهما نيوكولاي تروبتسكوي (N. trubetzkoy) (1890-1938)، واللساني البولندي الأصل رومان جاكوبسن (Roman Jakobson) (1890-1982). (20) ويمكن حصر أهم الصفات المميزة لهذه المدرسة فيما يأتي:

1 - طبقت هذه المدرسة نظرية دي سوسير في الفونيم، حيث يعنى الصوت الكلامي، بوصفه واقعة صوتية. وقد سعوا إلى تطويره باعتباره العلم اللغوي تحليلي، ينظر إلى اللغة من جانبها الوظيفي، وأنها تعمل ككل من أجل خدمة هدف. (20)

2- كانت جهودهم موجهة لشرح مفهوم (الفونيم)، وتطور النظرية (الفونولوجية)، حيث أقام "تروبتسكوي" تصوره للفونيم على التفرقة التي وضعها دي سوسير بين اللغة (langue) والكلام (parole)، وذكر أن الفونيم ينتمي إلى مفهوم اللغة بالمعنى الدي سوسيري. أما الأصوات فتنتمي إلى الكلام. وهو بذلك يفرق بين علم الأصوات (phonetics) وبين الفونولوجيا (phonology)، على اعتبار علم الأصوات هو ذلك العلم الذي يحلل ويصف أصوات اللغة وهي في حالة التجريد، أي الذي يعالج الظواهر الصوتية ووظيفتها داخل البنية اللغوية.

3- اللغة عند أعضاء هذه المدرسة نظام (system) من العلامات (signs) وإن بيان وصفها لا ينهض إلا على أساس رسم حدود العلاقة القائمة بين كل عنصر وصلته بالعناصر الأخرى.

4- اهتمت بالتنوع الواسع لوظائف اللغة، واتجهت لاستخدام اللغة في جوانبها الجمالية والأدبية.

النمط الثالث: المدرسة الدنمركية- كوبنهاغن- Den mark school Copenhagueوتطلق عليها السويسرية المحدثة (Neos-ausurianisim)، وهي مدرسة بنيوية في أصولها، ولكن شهرتها تعود إلى (لويس هيمسليف Louis-Hjelmslev)، الذي وضع عام 1934 نظرية لغوية أطلق عليها اسم "الجلو سيما طيقا Glossématique." (29)

والجلو سيماتية نظرية لسانية بنائية، تجريدية منطقية، تصف اللغة بطريقة رياضية، وتسيرها عبر منهجية تستند إلى الفكر الاستناطي القائم على المنطق الرياضي الدقيق. (20)

كما تقوم هذه المدرسة على الأفكار الأساسية للغة عند سوسير، حيث تؤكد على أنها شكل أو صيغة، وليست جوهرًا أو مادة في مستوى المعنى، والصيغة بدلالة هذه النظرية ، هي كمية من العلاقات المتبادلة بين العناصر التي تقود المستوى المنطوق صوب النهاية المنطقية، مع الأخذ بعين الاعتبار المعايير الوجودية فوق اللغوية. وعليه فإن اللغة في محيط هذه النظرية نسق من العلامات أكثر من كونها مادة، وهي بذلك تُبعد اللغة عن سماتها الجمالية، باعتمادها اللون الرياضي التجريدي. (20)

النمط الرابع: المدرسة الأمريكية American School

تأسست هذه المدرسة انطلاقا من الدراسات الأنثروبولوجية التي اهتمت بدراسة العناصر البشرية لقبائل الهنود الحمر، واستكشاف خصائصها الثقافية، وفي ظل هذا الاهتمام نشأت الدراسة اللسانية الوصفية على يد بوواز(BOAS) ثم سابير، ثم تلاهُما "بلوم فيلد"، بخاصة بعد إسقاط المفاهيم السلوكية على الدراسة اللسانية. (30)

وسنقف عند كل واحد منهم لتوضيح مقارباته ونظرياته، وتأصيله للمنهج الوصفي، وتأثيره على الدراسات اللسانية الحديثة:

1 - فرانز بوواز (1858 – 1942)

كان فرانز بوواز أول من وضع أسس اللسانيات الوصفية في الولايات المتحدة الأمريكية وقد ظلت هذه الأسس التي تضمنها كتابه: "دليل اللغات الهندية الأمريكية" (Hand book of American indien

langues)، الصادر سنة 1911 مهيمنة على النظرية اللسانية، ولم يثر بشأنها أي جدال حتى سنة 1957 عندما ألف تشومسكي مؤلفه الشهير: البنى التركيبية (Syntactique structures). (31)

رأى بوواز أن اللغة هي أهم مظهر من مظاهر الثقافة، ومن ثم يجب على الأنثروبولوجي أن يفهمها، ويصفها بدقة بالغة، ويبين كيف أن نظامها يشكل وحدة متماسكة. فالمجتمع حسب بوواز لا يمكن فهمه إلا من خلال ثقافته ولا يمكن فهم ثقافته إلا من خلال لغته. (31)

كما قدم رأيه الجريء القائل بأن اللغات لها منطقها الداخلي الذي يأبى الانقياد لتطبيق أي مبدأ منهجي عام، وأن المادة اللغوية نفسها هي التي تفرض طريقة ما من طرق التحليل تكون ملائمة لها، وتمسك بوواز بهذا المبدأ، وأنج ـز دراسات وصفية ناجحة لأنماط من اللغ ـات كانت إلى ذلك الحين غي ـر معروفة. (19)

وبما أن أغلب اللغات الهندية الأمريكية غير مدونة في الأصل استبعد بوواز المقاربة التاريخية التي كانت عماد النحو التقليدي وراح يصرف همه كله إلى الوصف الصحيح للظاهرة اللغوية القائمة، أي أن المقاربة فُرض عليها أن تكون آنية بالكلية. (19)

إن مقدمة بوواز لكتابة دليل اللغات الهندية الأمريكية تعد موجزا ثريا للمنهج الوصفي الذي اتبعه هذا اللساني في دراسته للغة.

2 - ادوارد سابير (1884- 1939)

ويعد هذا الأخير رائد البنيوية في أمريكا، والمعلم لأجيال كثيرة من الباحثين. فقد كان ادوار سابير رجلاً ذا ثقافة عامة واهتمامات علمية واسعة وقد بدأ مستقلا عن دي سوسير في نشر أفكاره بالخارج عن اللغة بوصفها نظاما منسقا، وألقى بنفسه متحمسا في غمار اللسانيات الوصفية. (19)

ولئن كان "سابير" قد ترك عدة مقالات، فإنه لم يُخلف لنا إلا كتابا واحدا بعنوان : "اللغة Language"، الذي صدر في 1921 ، بعد عشر سنوات من ظهور كتاب بوواز "الدليل" وقبل اثنتي عشرة سنة من ظهور كتاب بلومفيد ، الذي يحمل العنوان نفسه "اللغة" ولكنه يختلف في الأصل شكلاً ومضمونًا، وفي هذا النص ذهب سامبسون إلى القول أن معظم أعمال سابير تشبه إلى حد بعيد عمل اللسانيين الوصفيين، ولكن الشيء الذي ميز سابير عن السلوكيين هو تشديده على القول أن الأنماط التي يكشفها التحليل اللساني هي أنماط موجودة في عقول المتكلمين، وإذا ما أراد الباحث أن يعرف بنية أية لغة، فما عليه أن يرجع إلى الناطقين بها ويستقصيهم. (31)

وكان سابير أيضا يركز على دراسة الأشكال اللغوية دراسة تحليلية تصنيفية دون تصورات مسبقة، أو دون محاولة إقحام أنماط من لغات أخرى، لأن هذه الأشكال هي أهم مظاهر اللغة، ولكن هذا لا يعني تناولها بطريقة مستقلة عما تؤديه من وظيفة، ومن هنا رفض "سابير" الاعتماد على التقسيم التقليدي (لأقسام الكلام) Parts of speech في دراسته التصنيفية للغات الهندية. حيث ذكر أن هذه الأقسام ليست كليات لغوية (linguistique universels) أو حتى وحدات وظيفية طبيعية، باعتبار أن لكل لغة أقسامها الخاصة وأنماطها المميزة، وقال أيضا إن كل لغة تمتلك من الأصوات والبنى والمفردات ما يكفيها لتلبية حاجياتها. (31)

3-ليونارد بلوم فيد (1887-1949)

يعد ليونارد بلوم فيد (L.BLOOMFIELD) الممثل الرئيسي للسانيات الأمريكية من خلال كتابه "اللغة"، الذي صدر عام 1933، وهو الكتاب الذي هيأ للدراسة اللسانية في أمريكا منهجيا لكي تنعت بالبنيوية والوصفية تارة، والتوزيعية تارة أخرى، فبعد أن استوحى بلوم فيد المعطيات النظرية لعلم النفس السلوكي، الذي كان سائدا آنذاك، في كل مجالات الفكر الإنساني، أسقطها على المنهج الوصفي اللساني مما أدى إلى ظهور نظرية لسانية متكاملة، قائمة على مجموعة من الأسس. (30)

أهمها ما يلي:

1- أن اللغة عند بلوم فيد وأتباعه من السلوكيين ليست إلا نوعا من الاستجابات الصوتية لحدث معين.

2- بالرغم من أن بلوم فيد لم يرفض دراسة المعنى، إلا أن اهتمامه الأكبر كان منصبا إلى الكشف عن القوانين العامة التي تحكم السلوك اللغوي والتي قد تؤدي إلى الكشف عن القوانين التي تحكم النفس البشرية، ومن ثم كان مقتنعا بأن إقحام الجانب الدلالي قد يعوق إلى الوصول إلى هذه القوانين. وهكذا أصبح بلوم فيد حامل لواء المعاداة للنزعة الذاتية (Anti- mentalisme).

3 لقد أرسى بلوم فيد أسس المنهج التوزيعي (Distribution). ويتألف هذا المنهج من محاولة إحلال الوحدة موضوع فحص لمكان وحدة أخرى معروفة السياق نفسه1.وإذا أمكن لهذا الإحلال أن يتم دون حدوث تغيير أساسي في السياق. فإنه حينئذ تكون لنا وحدتين منتميتين إلى فئة واحدة، أي أن لهما خصائص نحوية واحدة، مثال ذلك كلمتا برنامج" و"إنسان"، فإنهما ينتميان إلى فئة واحدة، أي فئة الأسماء، حيث إن من الممكن لهما أن يحتلا المكان نفسه في الجملة الآتية: "ذلك ال... خيّبَ أملي".(19)

2.1.2. ماهية المنهج البنيوي الوصفي

1.2.1.2. مفهوم المنهج البنيوي الوصفي (Descriptive method Synchronique method

يعنى هذا المنهج بوصف اللغة، بعيدا عن المؤثرات الخارجية فيها، وهو منهج عربي قديم بدأ مع البدايات الأولى للبحث اللغوي العربي، حين توجه اللغويون العرب إلى البادية، لسماع اللغة من أفواه أهلها، وقيدوا ملاحظاتهم الوصفية، وخرجوا بأصول وأحكام وقواعد، كانت مادة النحوي فيما بعد . هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن المنهج التاريخي أو سواه من مناهج البحث اللغوي في أي فترة من تاريخ البحث، لا يعني أنه استغنى عن وصف الظاهرة اللغوية قبل تحليلها، أو تفسيرها، أو دراستها دراسة معيارية تاريخية، أو تاريخية مقارنة، بيد أن مما لا شك فيه أن ثمة اتجاها وصفيا متميزا عن الاتجاهات السابقة، أخذ يطبق خطواته على اللغة، متجاوزا في ذلك المبادئ الوصفية التي لا يستغني عنها أي منهج لغوي يمكن أن يتصدى لبحث الظاهرة اللغوية. إن هذا هو ما نعنيه بالمنهج الوصفي، (24) هذا المنهج الذي يعنى بالاتجاه الشكلي، أي: بالنظر إلى الأشكال البنيوية لوصفها، وتقل أهمية المضمون فيه وقد تبنته في القرن العشرين المدرسة البنيوية التي انطلقت من محاضرات سوسير التي ألقاها في براغ و

كوبنهاغن، وباريس وغيرها من مدن أوربا على طلبة علم اللغة. وقد عرف منهجه بالمنهج البنيوي فيما بعد. (18)

أما الباحث فإنه يلجأ إلى استخدام هذا الأسلوب حين يكون على علم بأبعاد استطلاعية وصفية سبق أن أجريت عن هذه الظاهرة، ولكنه يريد التوصل إلى معرفة دقيقة وتفصيلية عن عناصر الظاهرة موضوع البحث، تفيد في تحقيق فهم أفضل لها، أو في وضع سياسات أو إجراءات مستقبلية خاصة بها. (16)

كما أن الباحث إذا أراد أن يدرس ظاهرة ما فإن أول خطوة يقوم بها، هي وصف الظاهرة التي يريد دراستها وجمع أوصاف ومعلومات دقيقة عنها، والمنهج الوصفي يعتمد على دراسة الواقع أو الظاهرة كا توجد في الواقع ويهتم بوصفها وصفا دقيقا. (16) كما ارتبط المنهج الوصفي كذلك منذ نشأته بدراسة المشكلات المتعلقة بالمجالات الإنسانية حتى الآن، وذلك نتيجة لصعوبة استخدام الأسلوب التجريبي في هذا المجال.

وعليه فإن المنهج الوصفي يعتمد طريقة لوصف الظاهرة المدروسة وتصويرها كميا عن طريق جمع معلومات مقننة عن المشكلة وتصنيفها وتحليلها واخضاعها للدراسة الدقيقة. (16)

فهو يدرس الأثر اللغوي –الكلام- المنطوق:

1- بعيدا عن المؤثرات الخارجية، والعلوم الأخرى كعلمي النفس والاجتماع.

2- يربط الأثر بالسياق الكلي العام، على أنه بنية متكاملة غير متجزئة.

3- يحاول الكشف عن القوانين بواسطة الاستقراء للجزئيات.

4- يقوم الباحث بدراسة النص بوجه عام، والشكل بوجه خاص لأجل معرفة الأنماط التركيبية التي يتكون منها الأثر.

5- دراسة الكليات وتركيبها في نسق من العلاقات والنظم، دون الاهتمام بدلالات تلك الأنسقة على المستوى الاجتماعي والتأريخي أو السياسي... أو غير ذلك مما ليس له علاقة ببنية اللغة الشكلية.

6- دراسة الأشكال الصوتية، والبنيات اللغوية المختلفة، بعيدا عن المضمون. (24)

2.2.1.2. مميزات المنهج الوصفي ومفارقاته للمناهج الأخرى:

لعلَّ من أظهر ما يميز هذا المنهج مايلي:

أولا: الاهتمام باللغات الحية والعزوف عن دراسة اللغات القديمة:

إن ما يتميز به هذا المنهج هو الاهتمام بواقع الظاهرة اللغوية، وليس بتاريخ تطورها، ولذا كان تركيز الباحثين فيه ينصب على وصفها من خلال واقعها المنطوق (المسموع). (24)

ورغم أن اللغويين العرب القدماء لم يلتزموا بهذا المبدأ، غير أنهم تنبهوا إليه، بل أكدوه في كثير من أقوالهم وتحليلاتهم.

وانطلاقًا من هذه النظرة كان يغلبُ على أصحاب هذا المنهج العزوف عن دراسة اللغات القديمة كالسنسكريتية مثلاً، في مقابل إقبالهم على دراسة اللغات الحية بوصفها كما هي، وليس كما كانت. (18) ومثال ذلك تلك البحوث التي اهتمت بدراسة ووصف العربية الفصحى من خلال استعمالها المعاصر، حيث توصل الباحثون من خلال ذلك الوصف إلى التمييز بين صعيدين متقابلين متباينين: الفصحى القديمة ، ويسمونها العربية الكلاسيكية، والفصحى المعاصرة التي تطلق على العربية التي تربط بين الناطقين بالعربية في أيامنا على صعيد الحياة الثقافية والرسمية، وهي تحظى بالعناية الكبرى لدى أصحاب المنهج الوصفي نظرًا لتحققها في الاستعمال المنطوق، وعلى هذا كانت اللهجات أقرب إلى تجسيد المعنى الحقيقي للغة في نظر الوصفيين. (18)

ثانيا: الاهتمام بتعليم اللغة:

تعتبر الطريقة الوصفية من أنجح الطرائق التي يمكن الإستفادة منها في مجال التعليم، ذلك أن الطريقة التاريخية أو حتى التاريخية المقارنة تتجاوز أهدافها البعد التعليمي للبحث اللغوي، إلى البحث في أصول الظواهر وتطورها. وهذا ما لا يحتاجه المتعلم أو المستخدم اليومي لهذه اللغة.

ولذا فقد عمدت الدراسات التعليمية إلى اتباع المنهج الوصفي في وضع الكتب التعليمية، وهو منهج يستهدف وصف الظاهرة اللغوية دون مقارنتها، أو دون الوقوف على مراحل تطورها. وإنما يصفها كما هي محاولا تبيان مدى إطراد قواعدها ومدى شيوع هذه القواعد. (18)

فالباحث الوصفي مثلا لا يهتم بالبحث عن منبع الكلمات: من أي اللغات انحدرت؟ فكلمات من مثل بَلْسَم، وحَبْل، وأَرْض، وواد، وغيرها انتقلت إلى بعض اللغات الأوروبية وأصبحت جزءًا من ثروة تلك اللغات. ومهمة الباحث الوصفي أن يرى ما تؤديه هذه الألفاظ من معان في تلك اللغات، لا إلى ما كانت تؤديه من معانٍ في لغتها الأصلية، وهو بالتالي لا يهتم باستنباط العلاقات الحضارية والتاريخية بين الشعوب من خلال اللغات. (18)

وهكذا كان لعلماء المنهج الوصفي –ونخص بالذكر الأنثروبولوجيون منهم- فلسفة خاصة في تعلم اللغات عمادها:

1- الاعتماد على جانب النطق قبل الكتابة، ولذلك نجدهم يهتمون بمختبرات تعليم اللغة، واستخدام الأشرطة، والسماعات.... أكثر من اهتمامهم بتعليم اللغات من خلال النصوص.

2- عدم الاعتماد على الكتب القديمة، أو ما تقادم العهد به من تسجيلات، في المقابل نجدهم يراعون في تعليم اللغة آخر صورة استقرت عليها، حتى ولو خالفت بذلك ما نص عليه من قواعد قديمة، لذلك يُعدُّ تقادم العهد على الدراسة الوصفية السابقة سببا كافيا لاجراء دراسة وصفية جديدة.

3- لا يعتمد المنهج الوصفي على مقابلة لغة بلغة أخرى للاتكاء تعليميًّا على ما بينهما من أوجه شبه. (24)

ثالثًا: الاهتمام باللهجات المحكية:

تولَّد عن اهتمام المنهج الوصفي باللغة في صورتها المنطوقة –دون المكتوبة- أن عني هؤلاء عناية كبيرة باللهجات، فالوصفيون ينظرون إلى هذه اللهجات نظرة متكافئة من حيث أهمية كل لهجة في التعبير عن فئتها. في المقابل قد ينظر إلى هذه اللهجات في غير هذا المنهج باعتبار لهجة أفضل من لهجة، أو أرقى، أو أرق أو أخشن وهكذا. (18)

وقد ظهر مع الاهتمام باللهجات ما عرف باسم "الجغرافيا اللغوية" أو "الأطالس الجغرافية اللسانية"، كما ظهر ذلك في كل من ألمانيا وفرنسا.

ولا يخفى علينا أن أوَّل أطلس جغرافي لساني قبل أطلس "جورج WENKER" الألماني ظهر في فرنسا على يد "جيل جيلييرون JULESGILLIERON" بالتعاون مع إدموند ، اسمه: الأطلس اللغوي لفرنسا Atlas linguistique de la France سنة 1902-1920 . (1)

وقد جاءت الدراسة الجغرافية للهجات في بلاد الشام متزامنة مع ذلك الأطلس الفرنسي. فقد نشر المستشرق الألماني "بير جشتريسر G.Bergstrasser" بحثه الأطلس اللغوي لسوريا وفلسطين سنة 1915 بعنوان:

" Sprachatlas Von syrien und palastina, ZDPV 38 .1915.162- 222
وعليه "فإن الأطالس منذ أنشئت حاولت أن تضع في جلاء الحدود اللهجية راسمة متشابه اللغات أي خطًا تصوريًا مفرقًا بين منطقتين أو مجالين لهجيين يهبان سمة لسانية معطاة

أشكالاً أو أنظمةً مختلفةً، أما مجموع ما تشابه من اللغات أو تماثل خطيا فإنه أصبح يسمى حزمة الحدود "Faisceau d'isoglosses"، وهي مجموعة صفات لغوية مشتركة أو هي مجموعة الخطوط لمتشابه اللغات تَرَاكُبُ أشكالها أو درجة قرباها ، تسمح بالتفكير للمرور من لهجة إلى أخرى"34.

رابعا:الاهتمـام بالجانـب الصـوتي فـي دراسـة اللغة: أدى الاهتمام البالغ باللغات المنطوقة، ودأب أنصار المنهج الوصفي على دراسة اللهجات، إلى العناية المركزة بدراسة الأصوات والأشكال الصوتية بشكل عام، فقد اعتمدوا في وصف الأصوات اللغوية على طرائق متعددة كطريقة الملاحظة، والتسجيل الصوتي، واستخدام الحنك الصناعي palatographyوالكيمغرافيا Kymography، والاسبكتروجرافيا raphyectrogps وغيرها. (18)

وتقوم طريقة الملاحظة على محاولة الباحث سماع الأصوات وهي تنطق في سياقها اللغوي من المستعمل اللغوي، أما طريقة التسجيل الصوتي فقائمة على محاولة وصف الأصوات عن طريق تكرار سماعها من آلة التسجيل. وتقوم طريقة الحنك الصوتي على وصف الأصوات من خلال البصمات التي يتركها نطق الصوت الذي يراد وصفه، على حنك صناعي يلصق بالفم، وقد طلي هذا الحنك ذو اللون الأسود بنوع من الطلاء الأبيض. (18)

3.2.1.2. في خطوات المنهج البنيوي (الوصفي)

يقوم المنهج البنيوي كغيره من المناهج العلمية على جملة من الخطوات التي تكون نظامه المفاهيمي، التي يعتمد عليها في تحليل الموضوعات، وسنحاول في هذا المقام تحليل هذه الخطوات، استنادا إلى نصوص "كلود ليفي ستروس" الأساسية:

أول خطوة يقوم بها المنهج البنيوي لدراسة موضوعه هي:

أولا- الملاحظة: يميز المنهج البنيوي بين خطوتين أساسيتين هما الملاحظة والتجربة.

الملاحظة تعني: ملاحظة الوقائع ووصفها من دون حكم على تلك الوقائع بأحكام مسبقة نظرية، وهذا يعني أن الملاحظة تشترط الحيادية والموضوعية وملاحظة الوقائع في إطار علاقتها. وهذه الخطوة توازيها في الأنتربولوجيا، مرحلة الاتنوغرافيا، أي مرحلة الدراسة الميدانية 35. وفي هذا المعنى يقول ليفي ستروس: ((إن جميع الوقائع يجب ملاحظتها ووصفها ملاحظةً ووصفًا دقيقين، بحيث نفوت الفرصة على الأحكام المسبقة...)). (39)

ثانيا- التجربة: بعد الانتهاء من الملاحظة، ينتقل الباحث إلى مرحلة التجربة، وهي على شكلين:

أ- تجريب على الواقع.

ب- تجريب على النماذج. (15)

يقول ليفي ستروس: ((مما لا شك فيه هو أن التجربة هي دائمًا صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة، غير أن التجربة التي يوحي بها إلينا الاستدلال والخاضعة لهديه، ليست هي نفس التجربة الخام المعطاة لنا في البداية)). هناك إذن مستويين للتجربة، فالأولى هي مستوى التجربة "الخام" التي تأتي مباشرة بعد مرحلة الوصف والملاحظة، باعتبار أنها مرحلة التأكد من المعلومات التي جمعها الباحث عن طريق الملاحظة، و المستوى الثاني هو التجربة الخاضعة للاستدلال، وتعنى أساسًا مرحلة بناء النماذج والتجريب عليها. (15)

هذا المستوى من التجريب يقصد به: مجمل الطرق التي تسمح بمعرفة كيفية رد فعل نموذج معين على التغيرات، أو مقارنة نماذج من طراز واحد أو من أنماط مختلفة بعضها ببعض) . (39) أما التجريب على النماذج، فيتطلب شرطين أساسيين، أولهما معرفة كيفية رد فعل النموذج اتجاه الوقائع... وكيفية رد الفعل هذه تتجسد في قدرته على أن يكون جامعًا ومانعاً للوقائع، وهذا طبقاً للخصائص التي يجب أن يتمتع بها النموذج، والشرط الثاني الذي يتطلبه التجريب على النماذج هو المقارنة أي مقارنة النماذج التي تصاغ انطلاقاً من الوقائع المراد دراستها، وطريقة المقارنة هذه تعتمد أساسا على الوضوح والبساطة والواقعية. (15)

إذن الملاحظة والتجريب عنصران أساسيان في المنهج البنيوي، وهو ما جعل من "ليبنسكي lipansky" تقول: (إن المنهج البنيوي يعيد إنتاج المنهج التجريبي، وأصالته، تكمن في نقله للمنهج التجريبي من مجال العلوم الطبيعية إلى مجال العلوم الإنسانية). (15)

وعليه فإن المنهج البنيوي، يعيد تقليدا وضعيا مشهورا في فلسفة العلوم، تقليدا يقوم على التمييز بين مرحلة الملاحظة ومرحلة التجريب أي إعادة إنتاج النزعة الاختبارية والتجريبية في العلوم الإنسانية36.

ثالثا: من التجربة إلى بناء النموذج:إن التجريب يقتضي مرحلتين، تجريب على الوقائع وتجريب على النماذج، ولكي يتم التجريب على النماذج يلزم القيام بعملية منطقية هي بناء النموذج، فماذا يعني النموذج؟وما هي شروط بناء النوذج؟ وعلى أي أساس يبنى النموذج؟(15)

لقد استعمل ليفي ستروس، كلمات مرادفة للنموذج تؤدي نفس المعنى منها كلمة مخطط ورسم تخطيطي وصورة أو شكل، وهي كلمات تعادل كلمة نموذج الذي يعني تصور نظري لمجموع الوقائع. فالنموذج عبارة عن صياغات نظرية تفترض تعريفا شاملا غير مغرق في التعقيد ، باختصار يجب أن يكون التعريف دقيقا وشاملا من أجل تفسير الوقائع. فالنموذج إذن مخطط نظري، يتماثل والتعريف المنطقي من حيث وجوب توفره على الدقة وجمع الوقائع قيد الدراسة.

وتعد العلاقات الاجتماعية بمثابة: (المادة الأولية التي نستخدمها لتركيب نماذج تبرز البنية الاجتماعية التي هي المادة تستخدمها لتركيب نماذج البنية الاجتماعية). لذا فإن النموذج توسط بين الوقائع الاجتماعية، التي هي مجموع العلاقات الاجتماعية كعلاقة القرابة أو العلاقات الاقتصادية أو الثقافية، والبنية الاجتماعية التي تتحكم في مجمل هذه الوقائع الاجتماعية، والفارق بين النموذج والبنية في هذا الإطار، هو أن النموذج أداة للكشف عن البنية، ولكي يكون كذلك يجب أن يتوفر على الشروط التالية:

أ- لا بد أن يؤلف نسقاً أو نظاماً من العناصر، يكون من شأن أي تغيير يلحق بأحد عناصره، أن يؤدي إلى حدوث تغيير في العناصر الأخرى.

ب- ينتمي كل نموذج إلى مجموعة من التحولات، وهذا طبقا لقانون المجموعة أو البنية كما وضح ذلك "بياجي" بحيث أن إدراك العلاقة بين العناصر لا يتم إلا بنوع من التحولات، وذلك حتى يتم إدراك موضعها وموقعها.

ج- يجب بناء النموذج بحيث يستطيع صياغة جميع الوقائع الملاحظة. (15)

وتتقاطع هذه الخصائص التي يتمتع بها النموذج مع خصائص البنية في نقطة

أساسية هي الشكلية، وهذا الاهتمام بالخصائص الشكلية لكل من النموذج والبنية، يؤدي إلى اكتشاف شكل مشترك بين تجليات الحياة المختلفة. لذلك ترتبط البنيوية والمنهج البنيوي بالشكلية، وتتعارض مع الدراسات التي تقوم على محتوى، فما يهم المنهج البنيوي هو اكتشاف لشكل، لذا فإن من طبيعة البنية أن تكون شكلية. (15)

رابعا: من النموذج إلى البنية:

إن الغرض الأساسي من كل الخطوات المنهجية التي يعتمدها المنهج البنيوي من ملاحظة أو وصف أو تجريب أو تركيب أو بناء النماذج هو الوصول إلى البنية والكشف عنها لذا فإن تلك الخطوات تتمثل دائماً.

أ- في نموذج له خاصية منتظمة.

ب- خصائص النموذج تتماثل وخصائص البنية، من نسقية، ودراسة العلاقات والقيام بالتبديلات والتحويلات.

ج- هناك دائماً، نماذج عديدة، لأنها مرتبطة بذات الباحث، في حين أن هناك بنية واحدة (15)

د- النموذج وسيط بين الوقائع، وبنيتها أي بنية تلك الوقائع. (15)

خامسا: من البنية إلى النسق:

إن كل بنية توجد داخل نسق أعم فبنية القرابة مثلاً في نسق القرابة، والنسق الاقتصادي، في نظر غودوليه، يتألف من بنيتين: بنية قوى الإنتاج وبنية علاقة الإنتاج ولقد وضح غودوليه العلاقة التي تقوم بين البينة والنسق عندما اعتبر النسق والبنية كليات، مقارنة بأجزائها، فالبنية تشكل كلا بالنسبة للعنصر (موضوع+ علاقة) ولكنها تشكل جزءا بالنسبة لنسق (بنية+علاقة)، وكذلك الحال بالنسبة للنسق الاقتصادي يشكل جزءا في إطار المنهج البنيوي، فعندما تكتشف بنية الشيء، كبنية القرابة التي تتألف من موضوع (أب ابن الخال ابن الأخت). وتكون العلاقة القائمة هي العلاقة الكلية في إطار العناصر المؤلفة للبنية. وهناك مستوى ثان، هو وجود البنية داخل نسق من الأنساق، لذا تكون العلاقة بين (البنية +علاقة)، مثل النسق الاقتصادي الذي يتألف من بنية قوى الإنتاج وبنية علاقة الانتاج. (15)

3.1.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج البنيوي الوصفي:

لقد سيطر المنهج البنيوي الوصفي على الدراسات اللغوية في أنحاء العالم بفضل جهود (دي سوسير) ، الذي اعتمد توجهًا جديداً يناقض المعيارية ويستند في دراسة اللغة على المنظور الوصفي، وكان غرضه من ذلك:

- توجيه أنظار اللغويين إلى أهمية الإنطلاق في دراسة اللغة من اللغة ذاتها.

أي لغرض الدراسة نفسها، يدرسها دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها، فليس من موضوع دراسته مثلاً أن يحقق غرضًا تربويًا أو أغراض تعليمية أخرى. إنه لا يدرسها هادفًا إلى ترقيتها، أو إلى تصحيح جوانب منها وتعديل آخر، بل إلى عمله القاصر على أن يصفها ويحللها بطريقة موضوعية.2 و ذلك من حيث هي:

أ- قواعد تنسيقية ترابطية يتفق عليها الكيان الاجتماعي.

ب- نظام من القوانين النحوية موجودة بالقوة في كل دماغ.

ج- أصوات منطوقة صالحة لممارسة إجراءات البحث العلمي لا كلمات مكتوبة، ذلك أن لسانيات دي سوسير قد اعتمدت على نقطة مهمة في دراستها، وهي الاهتمام بواقع الظاهرة اللغوية، في ضوء ما يسمى باللغة المنطوقة "spoken language"، التي تمثل مادة الوصفي، وتشكل ما نسبته (90%) حين الشروع بالبحث، أما النسبة الباقية 10%) فإنها تعطى للغة المكتوبة. (20)

وعليه كانت اللغة في منظور المنهج الوصفي: بنية أو نظام صوتي، مؤلف من مجموعة من العناصر في المقام الأول، ذلك أن البنية الصوتية تحتل مرتبة المستوى الأساس والموجه بالنسبة لبقية المستويات، لذا تنعكس خصائصها في المستويات اللغوية العليا. (20)

أو بمعنى آخر هي: بنية (نظام)، وأن هذه البنية لكي تدرس لا بد أن تحلل إلى مكوناتها باعتبار أن كل لغة، وكل لهجة تتكون في المقام الأول من أصوات لغوية، تنتظم في لكمات تتألف من جمل لتعبر عن المعاني المختلفة، وهذا كله بهدف الكشف عن القوانين العامة للنظام اللغوي. (29)

وهكذا كانت اللغة كيان ثابت لا يتغير، وكان على الباحث أن ينظر إليها ويصف جزئياتها ليخرج بعد ذلك بما يتراءى له من خلال النظرة المجردة الواصفة التي يستطيع بها أن يعرف خصائص اللغة ونظامها وقواعد ذلك النظام من غير النظر إلى المؤثرات الخارجية كالمجتمع والتاريخ والثقافة...

4.1.2.نقد المنهج البنيوي الوصفي:

رغم المزايا السابقة للمنهج الوصفي، يوجه إليه الكثير من الانتقادات ومن أهمها ما يلي :

- الاهتمام باللغة دون المتكلم وظروف الكلام: حيث أن هذا المنهج يدرس اللغة من حيث هي لغة تدرس كما تظهر للباحث، وتدرس لغرض الدراسة نفسها، وللكشف عن حقيقته. (24)

–الميل نحو الإغراب والتجريد.

–استعمال التعبيرات اللغوية المنغلقة التي يصعب فهمها بسهولة. (24)

–أن المنهج الوصفي قد بلغ في الواقع حدود قدراته الوصفية من خلال الأنموذج الذي تبناه، ومع ذلك بقيت قضايا ومشكلات لغوية عديدة عجز أمامها ولم يستطع معالجتها بصورة واقعية من خلال قدراته الوصفية تلك. (29)

–إن البنيوي ينظر إلى الأثر، على أنه صورة فارغة من العلاقات الإنسانية والمضامين الاجتماعية.

–الأثر هو مجموعة عناصر صوتية، وأجزاء مجردة منعزلة عن تيار الحياة النفسية والاجتماعية، كما يرى ، وبروب و تشومسكي.

يقول بروب: "إن المنهج الشكلي يهتم بصفة جوهرية باكتشاف صورية العلاقة بين أجزاء الأثر بعضها ببعض، وعلاقة هذه الأجزاء بالكل، باعتبار أن هذه الأجزاء على علاقة تفاعل وظيفي مع ذلك الكل".(24)

وخالف (جولدمان) هذا المنهج، بأنه حاول الأخذ بالمنهج الوصفي الشكلي من ناحية، لأن اللغة وأنماطها التعبيرية أنماط بنائية، تستند إلى علاقات منطقية خاصة، وهو منهج بنيوي شكلي، ولكنه حين يعلل تطور هذا البناء، فإنه يؤخذ بعنصري (البناء والمحتوى) لأنهما عنده كل لا ينفصلان، وأن هذا

الكل على علاقة حركية بالحياة الاجتماعية وأبعادها المختلفة (24) ولهذا السبب بعينه لا يمكن الفصل بين الشكل والمضمون في الدراسة اللغوية، وهذا ما اتجهت إليه الدراسة في المنهج التوليدي التحويلي.

وعليه فإن المنهج الوصفي قد تعامل مع المستوى السطحي الظاهر للكلام وأهمل المستويات العميقة له، أما الفرد الذي ينتج ذلك الكلام بآلية معينة ووظيفة تبليغية محددة فهذا ما لم يعنى به هذا المنهج، وهذا أيضا ما دفع إلى ظهور مناهج بحثية أخرى قامت على النقائص وقدمت في المقابل بدائل.

ومع ذلك فإن كل هذه الانتقادات لا تقلل من قيمة وأهمية استخدام الأسلوب الوصفي في مختلف المجالات والظواهر اللغوية. باعتبار أن مبدأ (الوصف) هو الخطوة الأولى على طريق العلم.

2.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج الإحصائي.

1.2.2. نشأة علم الإحصاء وتطوره:

الإحصاء علم له قواعده وأصوله، وهو يخدم العلوم الأخرى ويساعدها على التطور والتوسع في البحث الدقيق والسليم.

وقد كان العالم الألماني (جو تفرد اختفال) عام 1759، أول من أطلق على هذا العلم اسم الإحصاء. إذ كان في أول أمره عرضا ذ ي دلالة وصفية لمجموع المعطيات الهامة في جميع النظم التي تميز بلدا أو دولة سياسة، سكان، الإنتاج، الثروة...إلخ، حتى انتهى إلى ظهور الإحصاء الأخلاقي للعالم البلجيكي (كيتلييه). أما (أوجست كونت) مؤسس علم الاجتماع فقد أعطى أهمية وضرورة لاستخدام هذا المنهج، وأشار إلى أن استخدامه سيؤدي إلى تطور علم الاجتماع. (14)

أما (إميل دور كايم) ، فقد استخدم المنهج الإحصائي في دراسته لظاهرة الانتحار وتبين له من خلالها عدم وجود ارتباط بين الانتحار والسن والجنسية ومحل الإقامة والتعليم، وإنما ظهر له ارتباط بين الانتحار وأنواع أخرى من العلاقات، هي العلاقة بين الفرد والمجتمع. (14)

وفي بريطانيا بدأت حركة البحث الإحصائي في مطلع القرن التاسع عشر وخاصة في عام (1801) على يد (جون ريكمان)، حيث تركزت هذه الدراسات حول تعداد منظم يظم عددًا من البيانات الديموغرافية التي كان البرنامج البريطاني بحاجة إليها للقيام ببعض الإصلاحات. ويرجع الفضل إلى (جون سنيلار) في إدخال الأساليب الكمية في المسوح التي تناولت دراسة المناطق الريفية. أما (تشارلس بوث) فقد استخدم التعدادات والإحصاءات الرسمية في دراسته للحياة والعمل لسكان لندن، ووضع في اعتباره الدخل والمهنة، وعدد الحجرات التي تسكنها الأسرة. (14)

أما (لابلاس) Laplace (1749-1829) وغوس Gauss (1777-1855)، فقد توجها نحو التحليل الإحصائي وإنشاء قوانين الاحتمالات والخوض في دراسة العلاقات بين الحوادث والظواهر المختلفة. ومنذ هذا التاريخ أخذ علم الإحصاء سبيله نحو الأبحاث المتنوعة والتخصصات المتشبعة مثل الديمغرافية والبيولوجية وعلم النفس والفلك والاقتصاد37 وخاصة علم الاجتماع. (44)

وبعد الحرب العالمية الثانية ازداد تطور العلوم بسرعة عجيبة وكثرت التخصصات وظهرت أفكار جديدة منها فكرة تجديد علم الجغرافية ، الذي ظل مدة طويلة من الزمن يخضع للوصف والتحليل

الإنشائي، كما أخذ الباحثون الجغرافيون يستعملون المناهج الكمية في التحليلات الجغرافية، من حيث أن هذه المناهج تجعل من المسلمات النظرية أكثر دقة وشمولية، وكذلك تساعد على المقارنة بين الأشياء النظرية والأشياء الفعلية أو مجابهة النظري بالواقع لضبط حال التوافق وتحديد الخطأ ومراقبة الحوادث وحصرها. (44)

ونظرًا لأهمية هذا العلم وفوائده الجمة مال نحو العديد من الباحثين في مختلف المجالات والتخصصات، أولها علم الاجتماع، كما استعمله السياسيون لمعرفة آراء الشعوب والحكومات في إدارتها وتشريعها، وذلك بجمع البيانات الإحصائية، أما علماء اللغة فقد اعتمدوا على الدراسات الإحصائية في حصر مفردات لغتهم ، ودلالات هذه المفردات وحصرها ضمن معاجم اللغوية.

2.2.2. مفهوم المنهج الإحصائي: خطواته وأهميته.

1.2.2.2. مفهوم الإحصاء:

قبل الدخول في عرض مفهوم المنهج الإحصائي، لا بأس أن نقف أولاً للتعرف على مفهوم كلمة "الإحصاء" لغةً واصطلاحًا.

الإحصاء لغةً: كان استخدام الإحصاء في أول أمره مقصورا على الأعمال الخاصة بشؤون الدولة، كما يدل على ذلك الأصل اللغوي في اسم هذا العلم، وهو الانجليزية، statistics و بناؤه (state-IST-ICS) وهو مشتق من كلمة (STATE) أي "الدولة" ومعناه "مجموعة الحقائق الخاصة بشؤون الدولة"38.

أما الإحصاء في اللغة العربية فيعني العد الشامل، ومن المجاز قول العرب هذا الأمر لا أحصيه أي لا أطيقه. (45)

الإحصاء اصطلاحا: لقد حدث كثير من الخلط بين كلمة إحصاءات وبين كلمة إحصاء، حيث أن كلمة إحصاءات تعني مجموعة من البيانات العددية التي تصف ظاهرة معينة، ومثال ذلك إحصاءات المواليد والوفيات والإحصاءات السكانية. (45)

أما كلمة إحصاء فتعني مجموعة من الأدوات في متناول الباحث أو متخذ القرار يطلق عليها الطرق الإحصائية، والتي يقصد بها الأساليب المتبعة لتلخيص وتصنيف وتحليل البيانات العددية وإيجاد العلاقة بينهما. (45)

وفكرة الإحصاء بالمعنى العادي والمألوف عبارة عن جمع بيانات عن المجموعات والظواهر المختلفة، والتعبير عنها في صورة رقمية.

أما المعنى الثاني لكلمة الإحصاء فقد تنصرف إلى ذلك العلم ، الذي يهتم بتعميم النتائج المستخلصة من العينات على المجتمعات أو ما يعرف أيضا بالاستدلال الإحصائي فالإحصاء بهذا المفهوم هو مجموعة من المناهج الكمية المستعملة للتمكن من الوصول إلى الحكم الجيد والرأي السديد الأقرب إلى الصواب المقابل للظن، أو عبارة عن ذلك العلم الذي يهدف إلى جمع وتنسيق الوقائع العددية بغية الحصول على العلاقات الرقمية المستقلة نوعا ما عن شواهد الصدفة. (44)

2.2.2.2.مفهوم المنهج الإحصائي:

يعرف المنهج الإحصائي بأنه " أحد أساليب وصف الظواهر ومقارنتها، وإثبات الحقائق العلمية المتصلة، شأنه شأن أساليب الاستنتاج المنطقي، إلا أنه يختلف عنها في كونه يعتمد على التعبير الرقمي عن الظواهر التي يتناولها بالبحث عن طريق القياس المباشر، كالطول، والوزن، والعمر، والثمن وغيرها، أو بدلالة وحدات أخرى كالرتب، والذكاء والظواهر الأخرى التي قد تبدو عصيبة على القياس، والإحصاء في العادة –عبارة عن عملية جمع البيانات الإحصائية عن الظواهر المختلفة والتعبير عنها رقميا، وهو بالمفهوم الحديث جمع البيانات ومراجعتها، وتصويبها، وتبويبها ثم تحليلها، وتفسيرها!39

فالمنهج الإحصائي يستخدم البيانات الرقمية، لأجل الاستدلال بها على وجود العلاقات بين الظواهر أو انتقائها ولا يكتفي بذلك بل يعمل على تعميم ما توصل إليه من نتائج. ذلك أن المنهج الإحصائي يقوم على جمع بيانات كمية أو رقمية من العلاقة بين المتغيرات وتبويبها واستخلاص النتائج منها بوسائل متعددة مثل الارتباط، وتحليل التباين.... إلخ40.

إن المنهج الإحصائي يقوم بتجميع البيانات تجميعا كميا، وهو بذلك يعكس نتائج البحث العلمي في صورة رياضية بالأرقام والرسوم البيانية، ومن ثم تسهل المقارنة، ويستطيع الباحث بعد ذلك الوصول إلى الحقيقة. (14)

والملاحظ مما سبق ذكره أن هناك تشابها بين المناهج الثلاثة: المقارن، ودراسة الحالة، والإحصائي، إلا أن منهج دراسة الحالة يختص بالتعمق في دراسة ظاهرة فريدة مع البيانات الواسعة عنها، أما المنهج الإحصائي فيتم فيه جمع البيانات على نطاق واسع وتصنيفها وتبويبها واستخراج العموميات منها، ويقف المنهج المقارن وسطا بينهما. وبينما تعد الوحدةُ هي محور الدراسة في منهج دراسة الحالة، فإن المنهج الإحصائي يقوم على المجموعات دون المفردات، وتنعدم فيه قيمة المفردات ويزيد عددها بشكل كبير، إلا أن هذه المناهج تتكامل، فقد يُستخدم المنهج المقارن مع منهج دراسة الحالة ، أو مع المنهج الإحصائي إن اقتضيت الضرورة ذلك. (17)

وللمنهج الإحصائي خصائص تميزه عن المناهج الأخرى أهمها:

- يجعل الباحث يتجرد من عواطفه ومشاعره ويحكم على الظواهر حكما موضوعيا، فالأرقام هي التي تتحكم وتبين طريقة الظاهرة.

- الإحصاء معناه أننا إذا وجدنا وقائع معينة وقام بقياسها عدد من الباحثين مستخدمين في ذلك منهجا مشتركا فإن النتائج التي يصلون إليها تكون واحدة.

-إن الباحث في المنهج الإحصائي يضع قوانينه في صورة كمية رياضية مما يجعل نتائجه أقرب إلى الدقة العلمية بعيدة عن مرونة الألفاظ. والتغيرات اللغوية، وعن الغموض والإبهام، حيث أن نظرة واحدة على رسم بياني مثلا تكفي لإعطاء الفرد فكرة واضحة عن تطور ظاهرة من الظواهر، أو ارتباط ظاهرة بأخرى أو المقارنة بين ظاهرتين.

- كلما كانت النتائج دقيقة ساعد ذلك على التنبؤ الدقيق في ميدان هذه الظاهرة. (14)

3.2.2.2.خطوات المنهج الإحصائي:

يلتزم من أراد استخدام المنهج الإحصائي إتباع الخطوات التالية:

1-تحديد المشكلة محل البحث تحديدا جيدا، وذلك بتحليلها إلى عناصرها الأولية للإحاطة بها من جميع الجوانب.

2-جمع البيانات الإحصائية: حيث تجمع البيانات والمعلومات عن الظاهرة موضع الدراسة من السجلات المتخصصة في جمع البيانات الإحصائية ، أو عن طريق التعداد بزيارة البيوت أو المصانع أو المحلات التجارية لإنجاز البيانات المطلوبة والتي تصاغ عادة في شكل أسئلة تتضمنها استمارات البحث. (17)بشرط أن لا تكون تلك الأسئلة كثيرة،ولا غامضة،ولا الإجابة عنها طويلة، ولا تكون أسئلة متكررة ولا التي تثير الغضب... إلخ. (44) كما يمكن جمع البيانات أيضا من خلال المراسلات أو المقابلات.

وجمع البيانات قد يأخذ صيغة الحصر الشامل لجميع ظواهر محل الدراسة، أو الاكتفاء بأخذ عينة تمثيلية لهم خاصة إذا كان العدد كبيرا، وكلمة "العينة" échantillon، تطلق على ذلك الجمع الذي يضم عددا كبيرا أو قليلا من الأفراد، والمتغيرة في الشكل أو اللون أو القياس، لكنها تعود إلى أصل واحد، وهو التشابه في إحدى الصفات على الأقل، فالباحث عندما يريد دراسة أحد الأبعاد أو إحدى الخصائص لمجموعة من الأفراد، أو إحدى السمات، فإنه لا يستطيع أن يقوم بملاحظات لكل أفراد المجتمع، وليس بإمكانه أن يجري قياساته على كل فرد من أفراد هذا المجتمع، لكنه في المقابل يستطيع أن يأخذ فكرة تقريبية على الأقل إذا اقتطف عينة قد تكون قليلة أو كثيرة الأفراد، (44)لكنها ممثلة لكل أفراد ذلك المجتمع..

3-تصنيف البيانات وتبويبها وعرضها:

يعد تصنيف البيانات الإحصائية وتبويبها أمرا أساسيا في عملية جمع البيانات وتحليلها، حتى يمكن الاستفادة منه في تحديد اتجاهات الظواهر المختلفة والحكم عليها إحصائيا ورغم أن هناك أنواعا مختلفة من الطرق لتبويب البيانات ، لكنها تهدف جميعا إلى تجميع هذه البيانات في فئات وإبرازها بأكبر قدر من الوضوح وفي أضيق حيز ممكن. (44)

وتختلف أنواع هذه الفئات تبعا لطبيعة البيانات وكيفية استخدامها بعد ذلك، وأبرز أنواع التصنيف هو التصنيف الزمني، حيث تصنف البيانات تبعا لوحدة زمنية محددة كالشهر أو السنة "كتصنيف الناس حسب أعمارهم"، ثم التصنيف الجغرافي وفيه تصنيف البيانات تبعا لمناطق جغرافية معينة قد تكون الأقسام الإدارية للدولة، أو مكونات هذه الأقسام (المحافظات والمراكز والقرى، وهكذا). ثم التصنيف النوعي تبعا لخصائص معينة مشتركة، مثل تصنيف السكان حسب المهن، وتصنيف الأنشطة الاقتصادية حسب نوع النشاط. ثم التصنيف الكمي وفيه تصنيف البيانات تبعًا لفئات رقمية معينة.(44)

ومن الناحية العلمية فإن الباحث يستطيع الجمع بين نوعين من هذه التصنيفات، فيمكن مثلا تصنيف السكان في أقسام الدولة المختلفة حسب السن والنوع، أو تصنيف السكان المتزوجين حسب العمر والنشاط الاقتصادي وهكذا... الخ. ويعرف ذلك بالتبويب المزدوج أو التبويب المتقاطع. وبعد عملية التبويب يتم تفريغ تلك الفئات في جداول تدعى الجداول الإحصائية.

ثم يتم تمثيل تلك البيانات المجدولة في رسوم بيانية، ذلك أن التمثيل البياني يسهل علينا معرفة الاتجاه العام للظاهرة المدروسة، إلا أن التعمق في معرفة الظاهرة ومعرفة المزيد من المعلومات عن اتجاهها وعن الأسباب التي تكمن وراء هذا الاتجاه، تقتضي الانتقال إلى التحليل والتفسير.

– التحليل:

تعتمد عملية تحليل البيانات الإحصائية على عملية التبويب السابقة، فحتى يتمكن الباحث من تحليل ما تجمع لديه من بيانات واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها، لا بد له قبل ذلك من وضعها في فئات أو مجموعات هادفة لها معنى ودلالة. (46)

ويتم التحليل عادة على طرق عدة و كيفيات ، منها تحليل البيانات لمعرفة اتجاهها العام، أو إيجاد القيمة المتوسطة لها أو إيجاد قيم تباعدها أو تشتتها بعضها عن البعض الآخر ، أو عن قيمة معينة خاصة بها مثل متوسطها الحسابي ، وكذالك مقارنة بعضها عن البعض الآخر وإيجاد ترابطها وما شابه ذلك . (17)

- التفسير:

و في هذه المرحلة يقوم الباحث بتفسير تلك البيانات المجمعة والمبوبة والمحللة، ويعني التفسير استخلاص ما تعنيه هذه الأرقام وإبراز الارتباطات وأنماطها أو نفيها. إلا أنه على الباحث أن لا يكتفي بالأرقام المجردة، ولكنه ينبغي أن يقرأ تلك الأرقام في سياقاتها الثقافية والسياسية والاجتماعية والتاريخية. كما أنه على الباحث عدم الاكتفاء بتلك النتائج، ولكن يعمل على تعميمها في حالات أوسع من الحالات التي قام بدراستها.41

4.2.2.2.أهمية المنهج الإحصائي

لاشك في أهمية الجهود الإحصائية التي تبذل في سبيل حصر المفردات اللغوية ،أو صياغتها أو تراكيبها ....، وقد عكف الباحثون اللغويون على خدمة لغتهم عن طريق اتباع المنهج الإحصائي ، فعاد ذلك على لغتهم بفوائد جمة و خاصة في المجال التعليمي ،ولعل من أظهر فوائد الإحصاء اللغوي ما يأتي:

1-على الصعيد المعجمي:

إن التأليف المعجمي يعد عملاً مرتجلاً يقوم على الاجتهاد الشخصي في اختيار الكلمات التي تقدمها الموسوعة اللغوية للقارئ ، باعتبار أن الباحث المعجمي أصبح بإمكانه انتقاء مادته وفق الخطة التي يرمي إليها ، فإن أراد من معجمه أن يقدم أيسر الألفاظ تناولا في اللغة وأكثرها شيوعا ،تخير في ذلك - من خلال ما تفسر عنه القوائم الإحصائية لأكثر الألفاظ شيوعا – ما يفي حاجته وبالمقدار الذي يراه مناسبا لقارئه من حيث المستوى الثقافي أو العلمي أو مستوى العمر ...إلى غير ذلك من الأهداف. (18)

وقد تيسر لأصحاب المعاجم كذلك أن يصنفوا معاجمهم ، فبعضها عام، وبعضها متخصص ، وحتى المتخصصة أصبح ميسورا أن تصنف هي الأخرى، فبعضها يخص هذا الضرب من ضروب المعرفة ، وبعضها يخص ضربا آخر

2-على الصعيد التعليمي:

لقد أسهمت النتائج الإحصائية بنصيب أوفر في خدمة اللغة على الصعيد التعليمي.

إن كثيرا من الكتب التعليمية التي أعدت لتعليم الناطقين بالعربية،ما تزال قائمة على الاجتهاد الشخصي -العمل المرتجل- في اختيار ما ينبغي أن يقدم للطالب، وحسبك أن تعلم-مثلا على ذلك-أن عينة واسعة من كتب التطبيق النحوي2 ،التي أعدت لتعليم النحو ،وتذليل صعابه ،قال معدوها إنهم اقتصروا من القواعد على ما يمكن أن يوظف في تقويم اللسان والقلم .ألا أن هذه الكتب قد تضمنت على قواعد كثيرة في باب الشرط وغيره مما يندر استعماله في الواقع اللغوي.

أما بعض الكتب القديمة ،فنراها لا تحفل بالجانب التعليمي بمقدار ما تحفل بالجانب التأصيلي للغة ، وحتى ما أعد منها إعدادا تعليميا فإن الإمكانيات الإحصائية ، والنتائج الإحصائية لم تكن متيسرة لديهم، كما هو الحال لدينا الآن. وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نطالبهم بمستجدات عصرنا، بل لا بد لنا في المقابل أن نطالب أنفسنا بتخير ما ينفع مما يستجد. (18)

وعليه فإن المجال مفتوح،لأن تتوجه الجهود لخدمة العربية في مجالات تعليم اللغة من حيث الوقوف على أشهر الأوزان الصرفية و التراكيب النحوية و المعاني البلاغية وكذا مراقبة ذلك التطور اللغوي من خلال عمل إحصائي جاد وهادف.

<u>على الصعيد الثقافي:</u>

لقد استطاع الباحثون الغربيون، عن طريق الجهود الإحصائية ،إعادة صياغة الكثير من الأعمال الأدبية الكبيرة. وقد أملى عليهم ذلك أمران :

1 - إن بعض هذه الأعمال قد تقادم العهد على لغته.- كروايات شكسبير مثلا- فلم يعد في ميسور الناس في هذا العصر تفهم ما كتبته أقلام الناس قبل قرون (18) ، وقد أسعفتهم الأعمال الإحصائية في معرفة المستوى اللغوي الذي يتناسب مع هذه الفئة من الناس أو تلك...إلى غير ذلك من الاعتبارات الأخرى. وقد أدى افتقارنا إلى هذه النتائج الإحصائية أننا صرنا نقدم صفحات التاريخ العربي الإسلامي البشري المشرق ، والعقيدة الغراء إلى الأجيال، بلغة لا تناسب قدرات كثير منهم. كأن تقص السيرة النبوية في كل عام على الناس بلغة ابن هاشم مثلاً.

2-إن كثيرا من الكتب العلمية والثقافية ، و التراثية والمعاصرة ، والمحلية وحتى المترجمة ، تحتاج منا معرفة كيف نقدمها إلى الناس مراعين في ذلك ما يناسب مستوياتهم اللغوية والثقافية ، ولا نستطيع أن نحقق ذلك دون العودة إلى المنهج الإحصائي. (18)

<u>على الصعيد التاريخي:</u>

إن الظاهرة اللغوية-كأي ظاهرة اجتماعية أخرى- تلاقي ما يلاقيه الفرد في المجتمع، فهي قد تولد وتزدهر و قد تضمحل وتموت.وربما تزدهر في بيئة معينة، وفي نفس الوقت قد تضمحل في ظروف أخرى. (18)

و كثيرًا ما تساير الظاهرة اللغوية الواقع الذي تحل فيه كأن تكسب اللفظة معنى دلاليا يجردها من ماضيها ، ولكنه يربطها بحاضرها....وهكذا.

أما قيمة الأعمال الإحصائية في هذا الصدد فهي تقف بنا على واقع اللغة في مرحلة ما فإذا ما تغيرت الظروف اللغوية زمانًا أو مكانا، كان إلزاما علينا أن نقوم بأعمال إحصائية أخرى مناظرة، لنتمكن بعد ذلك من إجراء موازنة بين صورة الماضي وصورة الحاضر وهذا كله بهدف التعرف على أهم التغيرات التي طرأت على أساليب اللغة، وتراكيبها ودلالة ألفاظها. (18)

3.2.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج الإحصائي:

في مجال المعرفة والعلوم، يعتبر علماء اللغة أن العلوم المرتبة ترتيبا زمنيا من حيث تقدمها وتأخرها بحسب أخذها بلغة الكم في مجال بحثها، ولذلك نراهم يقرون القول أنَّ الرياضيات هي أم العلوم ، و أرقاها لأنها تستخدم لغة الكم دائمًا. وهكذا أعتبر المنهج الإحصائي أكثر المناهج انتشارا بين العلوم، و الدليل على ذلك أن العلوم التي تقوم على الملاحظة (كعلم الفلك والوراثة والأحياء والعلوم الاقتصادية، والأعمال المالية والصناعية والتجارية....) لاغنى لها عن استخدام الإحصاء لإقامة القوانين التي تعتمد عليها تلك العلوم. (14)

أما العلوم الإنسانية والاجتماعية (كعلم النفس وعلم الاجتماع، وعلم اللغة ...) فقد انتقلت من النزعة العاطفية والكيفية إلي استخدام منهجٍ إحصائي أصبح بديلا لمنهج التجربة ، الذي يصعب تطبيقه في دراسة مثل هذه الظواهر.

وهكذا أصبح الإحصاء أداة للقياس و المنهج للبحث يقدم للعلماء على اختلاف توجهاتهم العلمية والمعرفية المادة الخام التي تساعد على إقامة النظريات.

إن المنهج الإحصائي-كما ذكرنا سابقا- يسعى إلى معالجة الظاهرة بطريقة كمية وموضوعية، و هو بذلك يعكس نتائج البحث العلمي في صورة رياضية بالأرقام والرسوم البيانية. ومن ثم تسهل المقارنة، و يستطيع الباحث بعد ذلك الوصول إلى الحقيقة.

وعليه كانت اللغة التي يعتمد عليها هذا المنهج هي لغة الأرقام التي قد تكون أوضح معنى وأدق وصفا من التعبير اللفظي عن الظاهرة ،وبلغة الأرقام تلك نستطيع كذلك إقامة استنتاجات صادقة من الوقائع الملاحظة، بل يفيد أكثر من ذلك في اختبار الفروض و مدى صدقها وعدمه، و ذلك من خلال البيانات الإحصائية. (17)

وقد طبقت هذه اللغة-لغة الكم-على المجال اللغوي وخاصة في المستوى لإفرادي.

حيث دأب علماء اللغة الأوربيون على حصر مفرداتهم، ودلالات هذه المفردات،وتراكيب كل لغة، ثم أخذوا يوزعون هذه الدراسات الإحصائية على معاجمهم اللغوية.فهذا معجم يحتوي على خمسة ألاف لفظة شائعة، و آخر يحتوي على عشرة آلاف لفظة تتضمن الخمس السابقة. وهكذا تتطور المعاجم من خلال تدرجها في الاستيعاب إلى أن يصل المرء إلى موسوعات لغوية تسجل كل شاردة وواردة. (18)

وعليه كانت اللغة في محيط هذا المنهج هي ذلك التعبير الرياضي،الرقمي والتجريدي ، الذي يعتمد عليه الباحث اللغوي في دراسة العناصر الصوتية للظاهرة المدروسة ، ومفرداتها، وجمالها، وأساليبها التركيبية ، من حيث الشيوع، والتتابع، والتوزيع، والاحتمالات الممكنة والمختلفة ، بغية الوصول إلى

نتائج يقينية موضوعية تمكننا من وصف الظاهرة اللغوية ومقارنتها ، وإثبات العلاقات القائمة بينها أو انتفائها....إلى غير ذلك من النتائج الأخرى.

4.2.2.نقد المنهج الإحصائي:

لا يقلل من شأن المنهج الإحصائي أن تذكر بعض التحفظات التي ينبغي أن ينتبه إليها الباحث اللغوي، فما من منهج علمي إلا ودَربُه محفوفة باحتمالات الخطأ والصواب، والاختصار والتطويل...

ولذا رأينا أن ننبه إلى مغبة الاطمئنان الكامل إلى نتائج هذا المنهج، ولعل من أظهر ما يمكن أن يلفت إليه النظر في هذا الصدد، أنه من الصعب على الباحث اللغوي أن يتناول النصوص اللغوية برمتها. ذلك أنها متطاولة في انتمائها المكاني والزماني، متنوعة في مستويات الناطقين بها ومشاريعهم العلمية، وخلفياتهم الثقافية و تخصصاتهم. (18)

ولذا كان لزاماً على الباحث أن يدرس الظاهرة اللغوية في إطار سياقاتها الثقافية والجغرافية والاجتماعية والسياسية ، حتى تكون عينته متطابقة تماما للمجتمع المدروس. (17)

ذلك أن العينة التي يطمأن إلى أنها تمثل الواقع اللغوي في أدنى البلاد ، قد لا تتطابق في نتائجها مع العينة التي أخذت من أقاصيها، أو أواسطها. حتى أن ما يشيع على ألسنة الناس في المدينة و الساحل يختلف اختلافا كبيرا عما يشيع على ألسنة سواهم في البوادي و الجبال.وقد تؤثر في نتائج العينة كذلك انحياز الكاتب إلى موضوع معين كالمدح أو الذم، أو إلى ثقافة معينة، أو تخصص ما. (18)

كما أن نتائج العينة قد تختلف من باحث لأخر. رغم أنها أخذت من البيئة نفسها. والزمان نفسه.

وعلى العموم فإن العمل الإحصائي له عدة محاذير، وهذه إشارة إلي بعضها،وثمة محاذير أخرى كالتمييز بين المعاني الحقيقية والمجازية. واحتمالات الخلط بين الواقع والرمز ....إلى غير ذلك.(18)

وقد تركزت الجهود الإحصائية على دراسة الظاهرة اللغوية من جانب المفردات، أما التراكيب فمازالت تنتظر جهودًا رائدة، تحدد أنماط الجمل من حيث الكثرة والشيوع والمعاني التي تترتب على ما يمكن أن يعتريها من تقديم وتأخير، وما شابه ذلك.من مشكلات تركيبية و أسلوبية. (18)

3.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج الوظيفي

1.3.2. نظرية مارتيني الفونولوجية الوظيفية .

1.1.3.2.نظرية مارتيني الفونولوجية .

إن اللسانيات الوظيفية للغة منحى لساني يقفوا أثر دي سوسير في إبراز أهمية الوظيفة الإبلاغية للغة ، وقد نشأ هذا الاتجاه مبكرًا في أحضان النزعة الفونولوجية في رحاب نشاط حلقة براغ اللسانية (CERCLE de linguistique de prage) ويمثل هذا الاتجاه حاليًا في مجال الدراسة التركيبية عددًا من اللسانيين يتقدمهم اللساني الفرنسي "أندري ماريتني " 42، فقد جعل هذا الأخير الدراسة التركيبية الوظيفية تبلغ مرحلة متميزة من مراحل تطورها ، حيث كان جادًا في استثمار النتائج العلمية

المحققة في مجال الدراسة الفونولوجية ، وكان ذلك إدراكاً منه لأهمية الدراسة التركيبية في ضوء النزعة الوظيفية في حقل الأصوات. (31)

فإذا كانت مدرسة براغ قامت بفصل الصوتيات الوظيفية (phonology) عن الصوتيات (phone tics) ، ونسبت الأولى إلى العلوم ، والثانية إلى الدراسات الإنسانية ،فإن مارتيني ، ساهم مساهمة فعالة في إزالة هذا الفصل ، وعدَّ الفونولوجيا نوعا من الفونتيك الوظيفية (functional phone tics) ولم يمنعه تأثره بهذه المدرسة أن يكون من المنظرين السباقين في ميدان الصوتيات الوظيفية الزمانية (diachronic phonology) ويهدف مارتيني من وراء نظريته هذه إلى تفسير تطور اللغة ، باستعمال مصطلحات بسيطة لا غموض فيها مثل : اللغة (langue) والجملة (phrase) ،والفونيم (phonème) والسمة المميزة (trait pertinent) ،واللفظم (monème) أي الوحدة الصوتية التي تقابل المورفيم في بعض النظريات الحديثة الأخرى. (31)

أما غرضه من التحليل الفونولوجي، فيكمن في تشخيص العناصر الصوتية وتصنيفها حسب وظيفتها في اللغة ، وعلى هذا الأساس ميز بين ثلاث وظائف أساسية .

أ -الوظيفة التمييزية أو التقابلية : عندما نساهم في تعريف عنصر في نقطة ما من مدرج الكلام بالمقابل مع كل العناصر الأخرى التي كان بالإمكان أن تكون في نفس تلك النقطة لو كان الخطاب مختلفا .

ب -الوظيفة التباينيَّة : عندما نساهم في تسيير تحليل القول إلى وحدات متتالية بالنظر للسامع

ت -الوظيفة التعبيرية : التي ترشد السامع إلى الحالة النفسية للمتكلم 43 ونظرا لاهتمامات مارتيني بالدراسات الزمانية، ونظرية التغير الصوتي فقد حوَّل النظرية العلاجية للتغير الصوتي إلى نظرية لسانية متطورة وردَّ التغيرات الصوتية إلى عوامل داخلية لا تخرج عن إطار اللغة ، لأنه يعتقد أن اللغات عبارة عن أنظمة سميائية آلية تنظم نفسها بنفسها وتتحكم فيها المبادئ التي تلبي متطلبات الجهد الأدنى والوضوح التام أثناء عملية التواصل. (31)

2.1.3.2.المذهب الوظيفي لمارتيني

مارتيني هو أحد اللسانيين الفرنسيين، له جهود كبيرة في البنيوية الأوربية وفي الألسنيَّة الفرنسية على وجه الخصوص ، ولد سنة 1908 ، وعمل في ميدان علم اللغة ثم اتخذ لنفسه مذهبا متميزا عن سوسير ومذاهب الآخرين. أثبته في كتابه (عناصر علم اللغة العام). (24)

ويعتبر مارتيني من رواد المذهب الوظيفي ويمكن تلخيص برنامج هذا المذهب في عبارات قليلة ، وهو أنه يتعلق بدراسة اللسان في حد ذاته ومن أجل ذاته ، وعليه فإن هذا

المذهب هو امتداد للمذهب السوسوري ، ذلك أن مارتيني نفسه يقر بطيبة خاطر

-على حد تعبيره – بأنه مدين لمحاضرات سوسير ، إلا أنه في المقابل ينفي أن يكون نشاطه شرحا و تفسيرا لتلك الدروس . وقد سمي هذا المذهب بالوظيفي لأن أصحابه يرون بأن دراسة اللسان تتمثل في البحث عن الوظائف التي تقوم بها عناصر القول في عملية التبليغ ، فاللغة البشرية كما يقول مارتيني : " تتيح لكل إنسان تبليغ تجربته الشخصية إلى نظائره ويشمل مفهوم "التجربة " كل ما يشعر به الإنسان أو يلاحظه سواء أخذت هذه التجربة صيغة يقين أو شك أو رغبة أم حاجة.(50)

كما يمكن أن يتم التبليغ في عدة قوالب سواء أكانت في صورة استفهام أم إثبات أم طلب ...الخ. (50)

إذن فمفهوم الوظيفة بشكل عام هو التأكيد على وظيفة الإبلاغ للغة، حيث يمثل ذلك قاعدة الرأية الوظيفية أي التركيز على عنصر الإبلاغ ، يقول مارتيني :" ومع ذلك فالقول : إن اللغة نظام ، لا ينير إلا قليلا هذه الظاهرة ، وعلى الرغم من أنها مجازية ، فالإشارة إلى اللسان بكونه أداة أو وسيلة تجلب بشكل مفيد جدا الانتباه إلى ما يميز اللغة عن كثير من الأنظمة الأخرى ، فالوظيفة الأساسية لهذه الأداة هي التبليغ . (50)

أما عن عمل الوظيفيين في هذا المنهج فهو البحث في وظائف العناصر اللغوية ،فإن كلمة (عين) مثلا، نميز فيها بين ثلاث صويتات ، نسجل من خلالها ثلاثة اختيارات متتالية :/ع/ عوض عن /ت/، التي تعطينا (تين) ، و/ل/ (التي تعطينا لين) و/ح/ في (حين) ..الخ .

ومن شأن هذا التغيير في مستوى الصويتات أن يتبعه تغير معنوي . (50) كما يرى الوظيفيون أيضا أن اللسان متشابه ومتطابق في وظائفه ، ومع ذلك فهو يختلف من جماعة إلى أخرى باعتبار أنه لا يعمل ولا يؤدي وظائفه إلا تبعا لأفكار وخبرات الجماعات البشرية، وأن اللسان أيضا ليس ثابتا بل هو قابل للتغير .

2.3.2.أسس المنهج الوظيفي

إن المنهج الوظيفي يقوم على عدة أسس وركائز أهمها :

1 -وظيفة اللغة : إن الوظيفة الأساسية للغة عند مارتيني هي التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي ، هذه الوظيفة الإنسانية تؤديها اللغة بوصفها مؤسسة بشرية على الرغم من اختلاف بنيتها من مجتمع لغوي إلى آخر ، وعليه فإن الوظيفة الجوهرية للغة تتمحور حول الإبلاغ والتفاهم والتواصل بين أفراد المجتمع اللغوي. (30)

إلا أن هذا القول لا ينفي وجود وظائف أخرى ثانوية تؤديها اللغة ، قال مارتيني :"إننا لنحترز من أن ننسى أن اللغة تستعمل (في المقام الأول) لوظائف أخرى غير تلك التي يتم بها التفاهم بين متكلميها ..... (50)

فالألسن فعلا تقوم بدور دعامة الفكر إلى درجة أنه يمكن التساؤل عما إذا كان النشاط الفكري الذي يفتقد إطار اللسان أهلا لحمل اسم "فكر" ...، ومن جهة أخرى فإن الإنسان يستعمل باستمرار لسانه للتعبير ، أي لتحليل مشاعره دون الاهتمام بردود الفعل التي من المحتمل أن تصدر عن الغير ، ويمكن الحديث أيضا عن وظيفة جمالية للغة يكون من الصعب تحليلها لمالها من تداخل مع وظيفتي التبليغ و التعبير .

إلا أن هذه الوظائف لا يمكنها أن تتحقق إلا إذا حافظ لسان من الألسن على خاصيته التي تتمثل في كونه أداة للتبليغ 44

2 -التلفظ المزدوج :تعمل اللغة الإنسانية من خلال النطق والتلفظ بها ، ويقيم أندري مارتيني « André martinet » مفهوم التلفظ على مستويين مختلفين ، ويطلق على هذا المفهوم تسمية التلفظ المزدوج أو التقطيع المزدوج الذي يعتبر السمة البارزة التي تميز اللغة البشرية عن سائر الأنظمة الإبلاغية الأخرى. وينصُّ هذا المفهوم على أن كلا من الوحدات الكلامية الحاصلة فوق التلفظ الأول، هي ملفوظة بدورها بواسطة وحدات من نوع آخر. (32)

أو بمعنى آخر أن هذا التقطيع يتجلى في مستويين مختلفين: إن كل الوحدات التي تنجم عن التقطيع الأول هي في الواقع مكونة بدورها من وحدات ذات مفاصل من ضرب آخر. (50)

فالتقطيع الأول للغة يقوم في أساسه على أن كل ظاهرة من مظاهر التجربة البشرية نريد تبليغها، أو حاجة من حوائجنا نَوَدُّ تعريف غيرنا بها تحلل إلى متوالية من الوحدات لكل منها صورة صوتية ومعنى. (50)

فإذا أخذنا المثال التالي: (كَتَبْتُ دَرْسِي)، نلاحظ أنه يحتوي على أربع لفظات دنيا متتابعة: /كتبـ/ـت درسـ/ـي

(1) (2) (3) (4)

ويسمى معنى كل لفظة مدلولاً وصيغتها الصوتية دالا. وبما أن هذه اللفظات هي وحدات دنيا، يستحيل تحليلها إلى وحدات دالة أصغر منها. (51)

أما لو أخذنا المثال التالي:" قلمي من عاج وفضة."

نلاحظ أن الوحدات التي يمكن استبدالها بلفظة / قلم/ كثيرة جدا لا يمكن حصرها كما يتضح لنا من الجدول التالي:

قلمي	من عاج وفضة
ساعتي	
قرط	
سوار	
قلادت....	

فالوحدة/ قلم/، وحدة معجمية تنتمي إلى قائمة مفتوحة لأن عدد وحداتها غير متناه، ويتزايد عبر الزمان (1)، كما يمكن لها أن تظهر في أكثر من جملة، وهذا ما يطلق عليه مارتيني اسم "الاقتصاد اللغوي". قال: " لو انعدم التقطيع الأول الذي يمثل التجربة في كلمات متوالية لكان وافق كل إرسال لخطاب ضربا معيّنًا من التجربة بحيث إن أية تجربة جديدة مفاجئة يستحيل تبليغها.إن تقطيع كلمات يمكِّن من صياغة ائتلاف مهمل لمحاولة تبليغ تجربة لم تكن المجموعة تملك لها دالاً احتياطيًا..."(50)

أما إذا نظرنا إلى نفس المثال السابق: (قلمي من عاج وفضة) فإننا نلاحظ أن الوحدات التي يمكن استبدالها بـ/ي/ في المثال تنتمي إلى قائمة محدودة الوحدات، ويتضح ذلك جليا من خلال الجدول التالي:

قلمـ/ـي	من عاج وفضة
نا	
كَ	
ـِكِ	
كمَا	
كم	
كن	
ـه	
ها	
هما	
هم	
هن	

فالوحدة **/ي/** إذن هي وحدة نحوية تنتمي إلى قائمة مغلقة لأن عدد وحداتها محدود (51). وعليه ففي التقطيع الأول يحلل كل خبرة لغوية، أو حاجة يرغب الإنسان في إيصالها إلى الآخرين عبر تتابع وحدات لسانية، وهي وحدات غير قابلة في ذاتها لأن تتجزأ إلى وحدات أصغر منها ذات دلالة، ولقد كان للعرب فضل السبق في هذا النوع من التحليل.

-يقول الآمدي في سياق حديثه عن الألفاظ الدالة: "أما حقيقته (أي اللفظ الدال) فما دلّ بالوضع على معنى، ولا جزء له يدل على شيء أصلا كلفظ إنسان. فإنّ (إنْ) من قولنا (إنسان) وإذا دلّت على الشرطية ، فليست إذ ذلك جزءا من لفظ (إنسان)..." (30)

أما مستوى التقطيع الثاني: فهو إمكانية تحليل الصورة الصوتية إلى وحدات صوتية مميزة، وبفضل هذا التقطيع يمكن للألسن أن تكتفي ببضع عشرات من إنتاجات صوتية متميزة نؤلف بينها لنحصل على صورة صوتية لوحدات التقطيع الأول. ففي حالة رأس/ مثلا، فإن وحدات التقطيع الثاني هي /ر+ـَ/ +/ همزة في رجة الصفر/ + /س+ـٌ وخلاصة القول أن كل لغة بشرية تحوي في طياتها مستويين من حيث البنية:

1) المستوى التركيبي: يتضمن عناصر تحمل دلالة، تتألف مع غيرها من العناصر الأخرى لتؤلف جملا، وتسمى هذه العناصر في هذا المستوى الأول باللفاظم (Les monèmes).
2) المستوى الصوتي أو الفونولوجي: الذي يمكن تحليله من حيث أنه يحتوي على وحدات دنيا أصغر لا تحتوي أية دلالة. تستعمل لتحديد عناصر المستوى الأول وهذه الوحدات تسمى بالفونيمات (Phonèmes).

ولذلك يعتبر التقطيع المزدوج كما ذكره مارتيني قانونا أساسيا يميز اللغة البشرية عن سائر الأنظمة الأخرى.

3) فكرة النظام: لقد انطلقت المدرسة الوظيفية من آراء وأفكار دي سوسير اللغوية. وفكرة النظام هي قضية محورية عند دي سوسير ، وعند أنصار المنهج الوظيفي، ذلك أن كليهما نظر إلى اللغة باعتبارها كل منظم من العناصر لا يمكن دراسته إلا من حيث كونه يعمل كمجموعة. كما لا يمكن لعناصر التنظيم إذا أخذت على حد ة أن تحمل أية دلالة بحد ذاتها بل تقوم دلالتها فقط عندما يرتبط بعضها البعض. (32)

4) المدونة: لقد اعتمد المنهج الوظيفي في وصف ودراسة وتحليل الألسن البشرية وما يطرأ عليها من اختلافات على مدونة سواء أكانت مسموعة متمثلة في الأقوال المسجلة على شريط مغنطيسي أو مكتوبة (إملاء).

-وهكذا يوصف اللسان طبقا لما وجد اختلاف في تلك المدونة المذكورة. أما إذا وجد اختلاف في النتائج المتحصل عليها من وراء دراسة تلك المدونة، فهذا راجع إلى سببين هما:

-أولا: اتفاق الباحثين في وصف ودراسة نفس اللسان، مع اختلاف المدونة المعتمدة وهذا ما يؤدي بالضرورة إلى اختلاف في النتائج المتحصل عليها لنفس اللسان. (50)
-ثانيا: أن الواصف يمكن في أية لحظة أن يشعر بحاجة إلى تكملة معلوماته أو التحقق منها ، فإن امتنع من الاستجابة إلى تلك الحاجة عند الشعور فإنه سيزيح بالطوع بعض جوانب الحقيقية، ليس لأنها غير وجيهة، ولكن لأنها أفلتت منه في البداية. (50)

3.3.2.مبادئ التحليل الوظيفي.

إن الدراسة التركيبية بلغت مرحلة متميزة من مراحل تطورها لدى مارتيني الذي عمل جاداً لدفع التحول المنهجي لمنواله، في ضوء المعطيات العلمية لعلم الأصوات الوظيفي، كما أشار إلى أهمية الدراسة التركيبية في ضوء النتائج المحصل عليها في رحاب الدراسة الفونولوجية .قال في مقدمة كتابه:

" إن مبادئ التحليل الصوتي قد نزلت منذ مدة إلى الميدان العام. على العكس من ذلك ما يقال في الفصل الرابع في علم التركيب، جديد وجديد جدا بالنسبة لكتاب كهذا. لقد ألزمتنا، ضرورة عرض منهج وصفي يغطي-بكيفية منسجمة- مجموع ظواهر اللسان، استباق نتائج مجهود جماعي يهدف –رغم سوء التنسيق- بالنسبة للوحدات الدالة إلى استخراج ما تمثلهُ الصوتيات للوحدات المتمايزة ..."(50)

ففي ضوء ما تحقق من نتائج في حقل الدراسة الفونولوجية، استطاع مارتيني أن يطور التحليل التركيبي للجملة ، بوضعه الخطوط الأولية لهذا التحليل الذي ينبني على وظيفة العناصر اللغوية في التركيب، والطرق التي ترتب وفقها العناصر في الجملة. (30)

وفي ظل هذا الاهتمام تمكن مارتيني من وضع أزمنة تأسيسية لإمكان وجود إجراء منهجي وظيفي لضبط العلائق الوظيفية بين الوحدات اللسانية التركيبية، لذلك نراه يقر مبدئيا بأن العلاقات القائمة بين اللفاظم (Monèmes) في أي نظام لساني تظهر في حالات مضبوطة بضوابط سياقية تكاد تكون مألوفة وشائعة في جميع الأنظمة اللسانية المعروفة. (49) ويمكن ضبط هذه الحالات في العناصر التالية:

1 -اللفاظم المكتفية بذاتها: إنّ اللفاظم المكتفية بذاتها (les monèmes autonomes)، هي وحدات دالة تتضمن في بنيتها المستقلة دليل وظيفتها مثل /اليوم/،/غدا/، /أحيانا/ ، /غالبا/... الخ. فالعلاقة التي تربط اللفظم المكتفي بذاته ببقية الملفوظ ليست على أساس موقعه في الملفوظ، بل هي قائمة على أساس دلالته الذاتية بغض النظر عن موقعه في السياق الذي يرد فيه. (30)

فلفظ/يوم/ في قوله تعالى «**هُـمْ اليَــوْمَ مُـسْتَسْلِمُونَ**» سورة الصافات، الآية 26.

غير مقيد بالموقع الوارد فيه، إذ يمكن له أن يظهر في عدة مواقع أخرى.

–اليوم هم مستسلمون.
–هم مستسلمون اليوم.

إن تواتر المونام المكتفي بذاته /اليوم/ كان تواترا جزافيا في البنى التركيبية الثلاث، أي غير مقيد بترتيب، وهذا يدل على أنّه مستقل تماما عن الملفوظ، والعلاقة التي تربطه ببقية العناصر ترتد إلى دلالته الذاتية، إذن فهو لفظ مكتف بذاته. (30)

2 -اللفاظم الوظيفية : تتميز هذه الوحدات بأنها قادرة في ذاتها على تحديد وظيفة عناصر أخرى لا يمكن لها أن تستقل بنفسها ، فيكون دورها إذن هو ضبط العلاقة التركيبة لهذه العناصر غير المستقلة 45 كالوظيفة التي تؤديها حروف الجر في النظام القواعدي للسان العربي .

3 -كن المكتفي بذاته :

يقصد بالركن كل مؤلف من اللفاظم تكون العلاقة بين عناصره وثيقة جدًا بحيث تشكل وحدة وظيفية كاملة لا يمكن تفكيك عناصرها .

ويتألف الركن المكتفي بذاته (le Syntagme autonome) من لفظتين فأكثر ، ولا تتوقف دلالته الوظيفية على موقعه في الملفوظ ، بل دلالته هي تلك الوحدة الكاملة التي تضبط علاقته بالسياق الوارد فيه ، ولكن في الغالب يشترط وجود لفظم وظيفي لتحديد حرية المجموعة اللسانية ، مثال ذلك قوله تعالى : " وأشربوا في قلوبهم العجل " سورة البقرة ، الآية 93 . فاللفظم /في/ في هذه الآية هو اللفظم الوظيفي الذي يربط المؤلف /قلوبهم / ببقية عناصر الملفوظ ، ويؤلفان معا كلا يسمى بالركن المكتفي بذاته .

4 -الركن الاسنادي (le Syntagme prédicatif)

ويعد هذا الركن النواة الوظيفة للملفوظ ، فهو العنصر الوظيفي الذي يحدد علاقة العناصر اللسانية بالبنية التركيبة . (30)

نمثل لذلك بقوله تعالى :" اليَوْمَ نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ "سورة يس، الآية 65..

فإن البنية التركيبية لهذه الآية تتكون من لفظم مكتف بذاته وهو / اليوم / وركن مكتف بذاته وهو / على أفواههم / والاكتفاء الذاتي بالنسبة لكل عنصر من هذين العنصرين يعود في الأول إلى دلالة اللفظم المكتفي بذاته /اليوم/ ، ويعود الثاني إلى الدور الذي يقوم به اللفظم الوظيفي /على/ . وبما أن الركن الباقي خارج العنصرين المذكورين /نختم/ وهو عنصر قادر على إنشاء رسالة بذاته دون إضافات وإلحاقات، فهو إذن ركن مستقل بذاته وظيفيا ، ومن ثمة فهو ركن إسنادي. (30) وإن كل ما يضاف إلى هذه النواة الإسنادية هو إلحاق أو توسيع (expansion) ، غير أن هذا الإلحـاق لا يغير العلاقات الوظيفية في الركن الإسنـادي ، سواء أكـان ذلك بالعطف (coordination) أو بالتبعية (subordination) . (30)

4.3.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج الوظيفي .

إن المنهج الوظيفي ينطلق أساسا من مبدأ اعتبار اللغة أداة ترجع وظائفها الممكنة إلى وظيفة التواصل ، وتؤسس على هذا المبدأ وصفا لبنية اللغات ، كما تجعل من وظيفة التواصل أساسا للبحث في قضايا التنظير اللساني الكبرى كقضية اكتساب اللغة وقضية الكليات اللغوية .

وعليه كانت اللغة عند أنصار المنهج الوظيفي إذن ، أداة تواصل تحلل بواسطتها التجربة البشرية تحليلاً يختلف من مجموعة إلى أخرى عن طريق وحدات ذات دلالة وشكل صوتي هي المونيمات تقطع إلى وحدات مميزة متتالية هي الفونيمات وعددها محدود في كل لغة ، كما أنها تختلف من لغة إلى أخرى من حيث طبيعتها وعلاقة بعضها ببعض . (50)

وقد حاول هذا التعريف أن يضم أكبر قدر من الحقائق حول اللغة وبخاصة من ناحية البنية والتركيب ، ومنه نخلص بالحقائق التالية :

1 -اللغة وسيلة للاتصال والتبليغ .
2 -تختلف اللغة باختلاف المجتمع .
3 -تتألف كل لغة من وحدات صوتية مميزة .
4 -تتركب هذه الوحدات الصوتية في كل لغة بنسب معينة ، وتختلف من حيث طبيعتها من لغة إلى أخرى .

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن هذه الازدواجية في بنية اللغة هي التي تفسر لنا كيف أن اللغة الواحدة تحتوي على آلاف الكلمات أو المورفيمات في حين لا تتعدى عدد الفونامات في أفضل الأحوال ،الخمسين فوناما .

ولا نبالغ أيضا إذا قلنا إن اتسام اللغة بهذه الخاصية يتيح للإنسان خلال استعماله للغة التعبير عن آلاف المعاني المتنوعة بواسطة اعتماد الوحدات الصوتية أو الفونامات التي هي محدودة ، بخلاف اللغة الحيوانية ، التي يقوم التنظيم الاتصالي فيها على عدد من الصرخات وكل صرخة تختلف عن بقية الصرخات الأخرى من حيث الصوت ومن حيث المعنى العائد عليها ، وتحتوي كل صرخة على معنى خاص بها. (32)

وهكذا كانت اللغة في ضوء المنهج الوظيفي وسيلة إبلاغ يستطيع الإنسان بواسطتها تحليل خبرته إلى وحدات .

إن وظيفة الإبلاغ إذن تبقى هي الوظيفة المركزية لتلك الأداة المسماة باللغة .

5.3.2. نقد المنهج الوظيفي :

لقد تبنى المنهج الوظيفي فكرة جوهرية تقوم على أساس أن الوظيفة الأساسية للغة هي وظيفة التواصل ،كما أبدع بدوره مبدأ التقطيع المزدوج ، الذي ميز بواسطته اللغة البشرية عن سائ ل الأنظمة الإبلاغية الأخرى ، ومع ذلك فإن هذا المنهج لم يسلم بدوره من بعض الانتقادات أهمها :

1 -الاهتمام باللغة دون المتكلم وظروف الكلام : حيث أن هذا المنهج درس اللغة من حيث هي لغة ، تدرس كما تظهر للباحث ، وتدرس لعرض الدراسة نفسها وللكشف عن حقيقتها .
2 -إن المنهج الوظيفي لم يستطع تحصيل (الكفاية اللسانية) أي مجاوزة كفاية الوصف إلى كفاية التفسير ، وذلك بربط دراسة اللغات بقدرة المتكلم أو السامع ، التي تمكن من إنتاج تلك المعطيات وفهمها.

4.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج التوليدي التحويلي

1.4.2. نشأة المنهج التوليدي التحويلي ودوافع ظهوره .

إن التغير الجذري في اتجاه اللسانيات الوصفية قد حدث عام 1957، عندما أصدر تشو مسكي مؤلفه الشهير " البنى التركيبية " Syntactic structures ، معلنا بذلك عن منهج جديد لدراسة اللغة ، أطلق عليه اسم القواعد التحويلية (*Transformational* genera-tive Grammar) ، وقد أحدث هذا التيار العقلاني ثورة في عالم اللسانيات (31) - في أمريكا خاصة – هذه الثورة التي مست الدراسة التركيبية البنيوية ، أو بالأحرى الدراسة التركيبية التوزيعية ، التي بدأت الإرهاصات الأولى لإعادة صياغتها وإخراجها في شكل جديد تتجلى في مرحلتها الجينية مع فكرة التحويل التي تبناها اللساني الأمريكي زليج هاريس (Zillig Harric) مبكرا (30) ،الذي يعتبر قطبا من أقطاب المدرسة التوزيعية . فما المقصود بالتوزيعية إذن ؟

إن التوزيع (distribution) " السياقات اللغوية التي يتواجد فيها عنصر لغوي ما ، وتأثير هذه السياقات على العنصر ، وعلى سبيل المثال ، إن لكل فونيم توزيعا خاصا به ،ويشمل توزيع الفونيم المواضع التي يقع فيها ، والمواضع التي لا يقع فيها ، والألوفون الخاص بكل موضع، والفونيمات التي تسبقه أم تلحقه . والشيء نفسه يقال عن توزيع المورفيم أو الكلمة أو الجملة .(46)

ولتقريب الفهم أكثر نشير ههنا إلى تعدد وجوه "ما" في الجملة العربية ، حسب السياق الذي تتوزع فيه ، كما يلي :

1 -النفي : قوله تعالى : "ما هذا بشراً" (يوسف /31).

2 -الاستفهام : قوله تعالى : "وما تلك بيمينك يا موسى " (طه /17) .
3 -التعجب : قوله تعالى : " قُتل الإنسان ما أكفرَه " (عبس /17) .
4 -الشرط : قوله تعالى : " وما تفعلوا من خير يعلمه الله " (البقرة /197) .
وتلك هي بعض المعاني الدلالية والنحوية التي وردت بها "ما" في سياق الآيات الكريمة .

وقد ذكرنا أيضا أن هاريس تحدث أيضا عن مفهوم " التحويل " ، ونشر مقالة عام1954 عنوانها (Tranformer grammar) في المجلة العالمية لعلم اللغة الأمريكي حدد فيها المفاهيم والقواعد والتعليمات الضرورية لتحويل جمل لغة ما ، انطلاقا من جمل لغة أخرى ، كما حدد الفكرة المركزية لتحويل الجمل إلى رموز على شكل أصناف كلمات ، والمقصود بذلك تحويل " البنى اللغوية إلى رموز ". (53)

أما تشو مسكي فقد أحدث ثورة في تاريخ الدرس اللغوي ، ذلك أن نظريته اللسانية التي جاء بها كان لها أثر بالغ في إنماء الدراسة التركيبية ، وتوطيد منهجية خاصة لدراسة الجملة وتحليلها ، واستكشاف بنيتها في ضوء المعطيات النظرية للسانيات التوليدية التحويلية ،التي أعطت الأولوية القصوى لدراسة الجملة حتى أوشكت أن تكون هي إياها (30)وبحكم تأثر تشو مسكي بمبادئ اللسانيات التوزيعية بوصفه تلميذا لهاريس، كانت كتاباته الأولى لا تتعدى حدودها ، لكن ما أن أخرج كتابه " البنى التركيبية " حتى أخذت المفاهيم التوزيعية تتراجع لتحل محلها المفاهيم الجديدة ، ثم كان كتابه :" أوجه النظرية التركيبية aspects de la théorie syntaxique "، الذي أصدره عام (1965) بلورة شبه مكتملة للنظرية التوليدية التحويلية التي طرحتها في مجال تطبيقها . (30)

وبهذا يكون تشو مسكي قد حاول التعامل مع اللغة بهدف بناء نظرية لسانية بديلة قادرة في الظاهر على أقل تقدير أن تفي بمتطلبات الدال والمدلول ، هذا الأخير الذي أقصي من التحليل في رحاب المنوال التوزيعي ، ذلك لأن المنهج الذي اتبعه أنصار المدرسة التوزيعية ، كان منهجا شكليا يتوخى الوصف السطحي للأشكال اللغوية كما هي منطوقة بالفعل ، دون أدنى جهد لتفسير القدرة الضمنية التي تظهر هذه الأشكال . (30)

ولهذا كانت ثورة تشو مسكي في مجال البحث اللساني مفارقة منهجية واضحة بين النزعة العقلانية والنزعة التجريبية السلوكية .

ذلك أن التيار اللساني الشائع في مجال الألسنية في الخمسينات كان يتبع آراء ألسنة بلوم فيلد الوصفية البنائية ، التي لم تكن تعير اهتمامها إلى متكلم اللغة ولا إلى دوره في تكوين الكلام ، بل كانت تكتفي بوصف الكلام وصفا موضوعيا وتجريبيا ،إلا أن الهدف ألسنية تشو مسكي أصبح مختلفا عن هدف الألسنة البلومفيلدية. فتشو مسكي تخطى هدف وصف اللغة باتجاه هدف تفسيرها وتحليل البنية اللغوية وتحولها من بنية إلى بنية أخرى بالاستناد إلى حدس المتكلم ومعرفته بقواعد لغته ، هذه المعرفة بالذات هي التي يصر تشو مسكي على دراستها ، وبذلك كان متكلم اللغة هو موضوع الدراسة الألسنية ،من حيث هو قادر على إنتاج عدد لأمتناه من الجمل، والجدير بالذكر أن الألسنية البلومفيلدية تصر على إهمال المتكلم في البحث اللساني (47)

كما تأثر تشو مسكي بمدرسة ديكارت العقلانية التي اتخذت من المنطق والعقل أساسا لتحليل الظواهر الاجتماعية ، والفكر هو الذي يؤدي إلى معرفة الحقائق وإثباتها. (24)

وهكذا كان للمنطق أثر واضح في منهج تشو مسكي في التحليل وتفسير الظواهر اللغوية وهو من هذا الجانب يقترب من الدراسة اللغوية العربية في التعليل والقياس والمنطق والجدل (24)

ونظرا لهذه الأهمية تعد نظرية تشو مسكي النظرية اللسانية الأوسع انتشارا والأكثر توافقا مع طبيعة اللغة البشرية ، ولم تأت هذه النظرية دفعة واحدة ، بل مرت بمراحل اقتضتها طبيعة البحث العلمي المتجدد (30)

2.4.2. مفهوم المنهج التوليدي التحويلي وأهم أسسه ومبادئه .

1.2.4.2.مفهوم المنهج التوليدي التحويلي :

إن المنهج التوليدي التحويلي هو من المناهج البحثية الحديثة في اللغة ، يرجع الفضل في تأسيسه إلى نوام تشو مسكي ، هذا الأخير الذي حاول أن ينهج نهج البنيويين السويسريين ، ولكنه أوجد لنفسه طريقة لها خصائصها وسماتها المميزة عن مدرسة سوسير البنيوية (24)

فسوسير وضع لمنهجه أصليين مهمين هما الوصف والتصنيف ، باعتبار أن اللغة عنده كيان ثابت لا يتغير ، وعلى الباحث أن ينظر إليها ، ويصف جزئياتها ليخرج بعد ذلك بما يتراءى له من خلال النظرة المجردة الواصفة التي تمكنه من معرفة خصائص اللغة ونظامها وقواعد ذلك النظام ، من غير النظر إلى المؤثرات الخارجية ،كالمجتمع والثقافة والتاريخ ....الخ (24)

أما تشو مسكي فقد حاول التعامل مع الظاهرة اللغوية من أجل تأسيس نظرية لسانية تملك الشرعية المعرفية لأن تكون بديلاً جديدا يفي بمتطلبات الدال و المدلول على حد سواء ،وتملك خاصية تميزت بها النظرية التوليدية التحويلية عن الاتجاه التوزيعي ،الذي أبعد من اهتماماته الجانب الدلالي تحت تأثير النزعة السلوكية التي أخذت بالجانب الشكلي الظاهري دون سواه (49)

ولذلك كانت محاولة تشو مسكي مفارقة منهجية واضحة بين النزعة العقلانية في الفلسفة الديكارتية ، وقد أفرد كتابا خاصا للسانيات الديكارتية ثم استثمر هذا الإرث الفلسفي في دحض الفكر السلوكي والنزعة التجريبية (30)

إذن فإن تشو مسكي رفض الوصف القائم على الملاحظة الشكلية للظاهرة اللغوية لأن التحليل العلمي للحدث اللغوي ليس بوصف خارجي لما كان قد تلفظ به المتكلم فحسب، وإنما هو تحليل العمليات الذهنية التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يتكلم بجمل جديدة (30)

ومن هذا التصور صار المنهج التوليدي التحويلي منهجًا عقلياً غايته اكتشاف الكفاية التي يمتلكها المتكلم والسعي من أجل تعليل الآلية الكامنة وراء بناء الجمل ،باعتبار أن البنى التركيبية للغات الإنسانية تنشأ من الخصائص النظرية للفكر الإنساني .

ومن هنا صارت الجملة القطب الرئيسي في الإجراء التوليدي التحويلي ، وأضحت ركنا أساسيا من بنائها النظري .

وقد أطلق على هذا المنهج لقب (التوليدي التحويلي) وهما مفردتان مستمدتان من (التحويل Transformation) و(التوليد générative)

أما مصطلح التوليد ، فإنه يدل على الجانب الإبداعي في اللغة ،أي القدرة التي يمتلكها كل إنسان لتكوين وفهم عدد لآ متناه من الجمل في لغته الأم ، بما فيها الجمل التي يسمعها من قبل وكل هذا يصدر عن الإنسان بطريقة طبيعية دون شعور منه بتطبيق قواعد نحوية معينة(31)

وقد أولى تشو مسكي هذه القدرة الإبداعية (créativité) اهتماما كبيرا ، وأكد على أن النظرية النحوية لابد أن تعكس قدرة جميع المتكلمين باللغة ، والنحو التوليدي نظره- في نظره ، أن يولد كل

الجمل النحوية (grammatical) في اللغة ، أي أننا ب اتباع قواعد نحوية يمكننا تكوين كل الجمل الممكنة في اللغة (31) ومما سبق نستطيع القول إن القواعد التوليدية تختلف عن القواعد التقليدية والبنيوية في نقطتين أساسيتين :

أولا : أنها لم تهتم بالجمل الفعلية أو الحقيقية (actual) أي الجمل التي وردت من قبل ولكن بالجمل الممكنة (possible) أي التي يمكن أن ترد ، أو التي يمكن أن تكون قد وردت من قبل ، وقد لجأ تشو مسكي إلى هذا التمييز لأن المدونة (corpus) في رأيه مهما كان حجمها لا تضم إلا عددًا محدودا من الجمل (31)

ثانيا : تعطي القواعد التوليدية المعلومات اللازمة لتوليد كل الجمل الصحيحة والمحتملة الصياغة دون سواها في اللغة، أي أن القاعدة تمنع في الوقت نفسه توليد الجمل غير الصحيحة وهي بذلك لم تترك أي مجال للشك أو الصدفة ، كما لا تدع أيضا أي شيء لذكاء القارئ أو معرفته بلغته(32)

أما مصطلح التحويل فإنه يحتل المكانة الرئيسية في القواعد التشومسكية ، وتمكن مهمته في تحويل البنى العميقة إلى بنى متوسطة وسطحية ، وهكذا فإن التحويل هو بمثابة الجسر الذي يربط بين البنية العميقة " والبنية السطحية " (53)

أو هو عملية نقل المستوى الداخلي العميق للغة إلى المستوى السطحي الظاهري (النطقي) والمنهج التوليدي التحويلي –على هذا المفهوم – ليس معيارا يقاس عليه الخطأ والصواب ولا هو وصف لبنى لغوية ثابتة غير مستقرة ، وإنما هو منهج ينظر إلى مستعمل اللغة على أنه مبدع ، يولد من التراكيب والجمل ما لا نهاية له (24)

وهذه النظرة مخالفة للاتجاه المعياري الذي يقيد المتكلم بعدد من قواعد اللغة التي يجب عليه اتباعها حتى يتجنب الوقوع في الخطأ ، باعتبار أن نظرة المعياري إلى اللغة هي نظرة احترام للقواعد والمعايير ، ينطلق منها ليقرر صحة الكلام أو خطأه ، فهو ينطلق من الجزئيات ، و الوصفي ينطلق من الجزئيات إلى الكليات العامة التي هي قواعد وأحكام ومعايير تلتزم بعد إقرارها وصفاً(24)

ومن هنا كان الفرق بين المنهجيات الثلاثة : التوليدية التحويلية والمعيارية والوصفية فرقا واضحا في النظر إلى اللغة ، فإذا كان المعياري مهتما بالخطأ والصواب والوصفي معنيا باستنباط القواعد والأحكام ،فإن التوليدي التحويلي ، يهمه توليد الجمل ناظرا إلى البنى التحتية لها ، وناطقا بما يوجبه البناء التحتي من صحة التركيب وقبوله في الصوت و المعنى ، ورفض ما كان غير منطقي ولا صحيح البنية .و هذه نظرة ليست بجديدة في عالم البحث اللغوي ، ولا سيما عند العرب .يرى القاهر الجرجاني أن متكلم اللغة قبل النطق بشيء يفكر مسبقا في تجميع المعاني في نفسه ، ثم يحاول بعد ذلك ترتيب الكلام في نفسه ، ويفتش عما يناسب المعنى من مفردات ثم يعرض ذلك على معاني النحو ، ليكون منها كلاما ، يرتبط بعضه ببعض بعلاقات تنظمه ، فإذا استوى المعنى واللفظ في نفسه أخرجه كلاماً منطوقا ، بتراكيب وجمل يأخذ بعضها برقاب بعض.(48)

وهكذا برزت معالم التوليد والتحويل عند العرب في دراسة اللغة في الأساليب البلاغية ، وأصول الكلام وعلم المنطق ، وعلم الكلام ، ولعل الأصوليين والبلاغيين يمثلون بحق أسبق المحاولات في دراسة اللغة ، من تحويلية تشو مسكي ، بل يمكننا القول : إن إطلاع تشو مسكي على النحو العبري ، والنحو العربي ، مما ترجم منه عن طريق نحاة الأندلس ، يجعل من الممكن أن نفترض تأثر ه ، والمدرسة التحويلية بالدراسات اللغوية العربية القديمة .

2.2.4.2.أهم أسس المنهج التوليدي التحويلي

ونطرح هنا ،أهم المفاهيم الأساسية التي قام عليها المنهج التوليدي التحويلي :

- الكفاية اللغوية والأداء الكلامي :

يميز تشو مسكي بين الكفاية اللغوية ، أي المعرفة الضمنية ، لمتكلم اللغة المثالي بقواعد لغته ، التي تتيح له التواصل بواسطتها ، وبين الأداء الكلامي ، أي طريقة استعماله للكفاية اللغوية بهدف التواصل في ظروف التكلم الآتية (32)

فالكفاءة إذن نظام عقلي تحتي قابع خلف السلوك الفعلي ، وعليه فإنه غير قابل للدراسة التجريبية المباشرة ، ولذلك كانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا النظام ودراسته هو الاستبطان (introspection)، الذي يساعدنا على إصدار أحكام على كل الجمل من حيث صحتها النحوية (grammaticality) ومقبوليتها (acceptability) (31)

وحسب تشو مسكي فإن اللساني وصاحب اللغة يتمتعان بمقدرة لغوية تتمثل في الحدس (intuition) تمكننا من معرفة الجمل من حيث استحالتها واستقامتها (31)وعليه فإن الحدس اللغوي جزء من كفاية الإنسان اللغوية ، أي جزء من معرفته الضمنية بقواعد اللغة ، ذلك لأن الكفاية اللغوية لا تنطوي على المقدرة إنتاج جمل اللغة وتفهمها فحسب بل تتضمن أيضا الحكم على أصولية الجمل(54)

للإيضاح نأخذ المتسلسلة الكلامية التالية : (بيروت جاء الرجل إلى)

فمن البديهي القول إن متكلم اللغة العربية لا يلزمه وقت كبير لكي يشير إلى أن الكلام في هذه الجملة لا يؤلف جملة صحيحة في لغته، فحدسه اللغوي يرفضه رفضا تاما

مما يلزم الباحث الألسني اعتبار الكلام هنا متنافيا وقواعد اللغة العربية(54)

أما بالنسبة اللساني ، فإن الكفاءة أي معرفة الفرد بقواعد لغته ، هي موضوع الدراسة اللسانية ، وإذا كان اللساني لا يمكنه أن يدرس اللغة إلا بفحص ما يقوله الفرد ، فإن هذه الأقوال الفعلية التي هي جزء من أدائه لا تكون إلا جزءا من الدليل على كفاءته ، ويكون الحدس المتمثل في الأحكام التي يصدرها الفرد الجزء الثاني من هذه الكفاءة وبهذا التركيز على دراسة الكفاءة يكون تشو مسكي قد جعل اللسانيات شعبة من علم النفس المعرفي (cognitive psychology) . (31)

- مقدرة الإنسان الفطرية ومراحل اكتساب اللغة عند الطفل:

تتخذ دراسة لغة الطفل – في ظل النظرية التوليدية والتحويلية –منحى سيكو-ألسنيا، حيث لا يمكننا أن نبرر الاهتمام بالأصوات التي ينطق بها الطفل والتي غالبا ما تكون مبهمة، إلا في إطار اهتمامنا بالطفل وارتباط لغته بلغة المحيط وعلاقتها بالفكر الإنساني عامة. (54)

ويعتقد تشو مسكي أنّ الطفل يمتلك قدرات فطرية تساعده على تقبل المعلومات اللغوية وعلى تكوين بنى اللغة خلالها. مما يعني أنّه مهيّأ بطريقة أو بأخرى لأن يكوّن قواعد لغته الأم من خلال الكلام الذي يسمعه، وأنه يمتلك بطريقة لا شعورية القواعد التي تكمن ضمن المعطيات اللغوية التي يتعرض لها. فهو يبني لغته بصورة إبداعية وبالتوافق مع قدراته الفطرية، بقدر تقدمه في عملية الاكتساب. أما عملية الاكتساب هذه فتتوقف على طبيعة نمو الطفل اللغوي. (32)

ففي الواقع يكتسب الطفل لغته في حين أنّ لا أحد يعرف كيف يعلمه اللغة، فالأم بالذات ليست ملزمة بأن تتخصص في مجال تعليم لغة الطفل، ولا يمكننا بالتالي تسمية علاقة الطفل بكلام بيئتِه عملية تعليم، كما أننا لا نستطيع أن نعتبر كلام البيئة مادة لغوية تعليمية لان هدا الكلام –بطبيعة الحال-ينحرف عن الأصول اللغوية التي نجدها عادة في كتب اللغة . (54)

إن الطفل السوي يكتسب المعرفة باللغة من خلال تعرُّض شفاف ومن دون أن يتدرّج عبر تمارين متخصصة. فيستطيع من ثمّ وبدون القيام بأي مجهود يذكر استعمال بنى معقّدة وقواعد موجّهة للتعبير عن أفكاره وأحاسيسه. ويكمن دور الباحث، بصفة أساسية، في إعادة وضع ما قام به الطفل بصورة فطريّة من دون أي جهل يلحظ، وتفهمه. (54)

ومن هنا نفهم لماذا لا تتقبّل النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية محاولات علم النفس السلوكي تفسير اللغة في إطار نظرية الاكتساب التي تقرن المثير بالاستجابة إلى مثير. فهي ترى في المحاولات هذه ضعفا أساسيا عائدا إلى عدم اعتقاد القائمين بها بأنّ وراء عملية اكتساب اللغة هناك قدرة عقلية فطرية قائمة بصورة طبيعية عند الطفل وتعده لاكتساب اللغة ، ضف إلى ذلك أن تلك المحاولات تنطلق من النظرة إلى اللغة على أنها تنظيم من العادات الكلامية ،وبالتالي فهي لا تعي التمييز الذي تشدد عليه النظرية التوليدية والتحويلية بين الكفاية اللغوية وبين الأداء الكلامي ، وأن اللغة قبل كل شيء هي كفاية لغوية 49

- <u>القواعد الكلية :</u>

يقتصر عمل الطفل خلال عملية اكتسابه اللغة على تحديد لغته من ضمن مجموعة اللغات المحتملة أي من ضمن ما يمكن تسميته "باللغة الكلية " (54)

ويرمز تشو مسكي بكلمة "القواعد الكلية " إلى مجموعة المبادئ المنظمة التي ينبغي أن يلحظها البحث الألسني من حيث هي مشتركة بين اللغات وتلتزم بها .وبصورة عامة نعني بكلمة القواعد الكلية تنظيم الشروط الذي تقوم عليه القواعد (قواعد اللغات) ذلك أن القواعد الكلية تحتوي على الشروط التي يجب أن تتوفر في كل لغة إنسانية وعلى المبادئ التي تفصل كيفية تفسيرها(54)

وتتضمن القواعد الكلية كل المعلومات والقضايا التي يأتي بها الطفل إلى مسار عملية اكتسابه للغة ، وبما أن اكتساب اللغة يقتضي تعلم قواعدها ، بصورة ضمنية فإنه ينبغي أن تقوم القواعد الكلية بتحديد الشكل الذي تتخذه قواعد اللغة وأنواع القوانين التي تندرج فيها والنمط الذي تصاغ عليه هذه القواعد والعلاقات التي تتشابك فيها . (54)

ومفاد ما سبق أن القواعد الكلية تكون الهيكلية العظمية لبنية القوانين التي تخضع لها كل لغة إنسانية ،كما أنها تحتوي بصورة أساسية ،على الكليات اللغوية الواجب توفرها في قواعد اللغات(54)

وبإمكاننا الآن أن نميز بين ثلاثة أنواع من الكليات اللغوية :

1 -الكليات الجوهرية : وهي تتكون من مجموعة فئات مثبتة ومجردة تؤخذ منها العناصر الخاصة بكل لغة ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : السمات الفونولوجية المميزة في مجال الفونولوجيا ، وفئتي الاسم والفعل في مجال علم التراكيب والسمات الدلالية مثل [+إنسان] [+ذكر] في مجال علم الدلالات (54)

2 -الكليات الصورية : وتتكون بدورها من مجموعة الشروط والقوانين المشتركة بين اللغات .وتنص على طرق توافق الكليات الجوهرية وفق أنواع متنوعة من القواعد وعلى المبادئ التي تنسق إجراء القواعد (54)

3 -الكليات التنظيمية : وتظهر الطريقة التي تنتظم بها قواعد كل مستوى من مستويات اللغة كما أنها تبين ترتيب إجراء القوانين في كل مستوى بالنسبة للمستوى الآخر وبالنسبة لقوانين من نوع آخر ، وتحدد هذه الكليات تداخل العلاقات بين القواعد فيما بينها ويندرج ضمن الكليات التنظيمية هذا الشكل الذي تتخذه قواعد اللغة ، بصورة عامة ، وانقسامها إلى مكونات ثلاثة : الفونولوجي والتركيبي والدلالي وتقسيم المكون التركيبي بالذات إلى بنية عميقة مكونة من قواعد التكوين والمعجم وإلى مكون تحويلي متفرع . (54)

وخلاصة القول إن الكليات الجوهرية تختص بالمفردات المتعلقة بوصف اللغات ، أما الكليات الصورَ ًية فتختص بتناول خصائص القوانين المؤلفة لقواعد اللغة ، في حين أن الكليات التنظيمية تختص بكيفية ارتباط القوانين بعضها ببعض وعلاقة المستويات اللغوية في ما بينها. (54)

انتقاد المذاهب السلوكية :

لقد رفضت نظرية تشو مسكي اعتماد الاستقراء منهجا في البحث الألسني الذي تبنته المذاهب السلوكية . (24)

كما اعتبرت المفاهيم التي ارتكزت عليها هذه المذاهب كالمثير والاستجابة وعملية تعزيز الاستجابات ، لا تحدد بصورة عملية وافية ، ذلك أن المثير يتم تحديده ولحظه عندما تُلحظ الاستجابة التي يثيرها ، وهذا بالذات ما دفع تشو مسكي إلى القول بأن مفهوم المثير في إطار سلوكية ،لم يعد مفهومها موضوعيا ، ذلك لأنه لم يعد من العالم المحيط بالإنسان ، إنما أصبح جزءا من جهاز الإنسان العضوي ولا يمكن بالتالي التكهن بالسلوك الكلامي من خلال المثير الذي يرتد عند محاولة تحليله إلى البيئة المحيطة بالمتكلم ، وذلك لأن تمييز المثير لا يحصل إلا حين تتم الاستجابة له(56)

وعليه فإن تحديد علم النفس السلوكي للمثير والاستجابة هو تحديد دائري وقد انتقد تشو مسكي المذاهب السلوكية والتجريبية من منطلق عقلاني ثابت ، رفض من خلاله أن يكون الإنسان شبيها بالآلة ، وأنه يجب التفريق بين السلوك الإنساني والسلوك الحيواني ، فاللغة تميز الإنسان عن الحيوان والآلة وهي غير خاضعة لأي حافز ، كما رفض أيضا اعتبار عملية اكتساب في مجال اللغة نتيجة تأثير المحيط على الطفل .

- الألسنية العقلانية :

لقد اعتبرت الألسنية التوليدية والتحويلية لمؤسسها نوام تشو مسكي أهم نظرية عقلانية تعالج قضايا اللغة الإنسانية واكتسابها وعلاقتها بالمعرفة الإنسانية بصورة عامة . فاللغة الإنسانية تمظهر للمقدرة اللغوية الإنسانية التي هي مكون من مكونات المعرفة الإنسانية .

ولذلك تنظر هذه النظرية إلى اللغة على أنها نتاج عقلي خاص بالجنس الإنساني ومكون من مكونات العقل الإنساني. (56)

أما تبني تشو مسكي أصول الفلسفة العقلانية، فهو مبدأ خالف فيه النظرية البنيوية الأوربية، ذلك لأنه اعتمد الألسنية الديكارتية، واتخذ من المذاهب الفلسفية مذهبا في تفسير الظاهرة اللغوية. (24)

كما دعا تشو مسكي إلى ضرورة العودة إلى بعض المسائل التي أثارها القدماء وإعادة اكتشافها وتبني قضاياها العقلانية من منطلقات ألسنية علمية صرفة. (24)

وهكذا تجاوز مذهب تشو مسكي المفاهيم السوسيرية والبراغية والكوبنهاجنية وأهم مأخذ يراه على البنيوية الأوروبية أنها سطحية شكلية لم تتنبّه على موضوع البنى العميقة، ولم تلاحظ (التحويل) الذي

يستخدمه المتكلم في تكوين الجملة، بل لقد التزمت أن اللغة قوالب جاهزة، وتعابير مجترّة، لأنها بناء جامد، وأن الإنسان لا يمكنه الإبداع اللغوي. كما اعتمدت في بحثها ألألسني على مبدأ الوصف والتصنيف، رغم أنهما لا يكفيان لإعطاء الصورة الكاملة للنشاط اللغوي الإنساني والعقل البشري. ولذلك رأى تشو سكي أن دراسة اللغة يجب أن تؤدي بالنتيجة إلى معرفة القدرات البشرية وإبراز طاقات العقل الإنساني في الإبداع والإنجاز. (24)

- البنية السطحية والبنية العميقة:

إنّ أول من استعمل مصطلحي "البنية السطحية" (Surface structural) و"البنية العميقة" (Deep structure) هو تشارلز هوكيت (Charles Hockett) في مؤلفه الشهير "محاضرات في اللسانيات الحديثة". ولكن هذين المصطلحين لم يظهرا عند تشو مسكي بطريقة جليّة إلاّ في "مظاهر النظرية التركيبيّة" (1965). (31)

وملخص القول: " إن لكل جملة بنيتين بنية سطحية وبنية عميقة. أما البنية السطحية، فهي البنية الظاهرة عبر تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلّم (54)أو أنّها تمثل الجملة كما هي مستعملة في عملية التواصل، أي في شكلها الفيزيائي بوصفها مجموعة من الأصوات أو الرموز. (31)

وأما البنية العميقة (Structure Profonde)، فهي شكل تجريدي (Abstract) داخلي يعكس العمليات الفكرية ، ويمثل التفسير الدلالي الذي تشتق منه البنية السطحية من خلال سلسلة من الإجراءات التحويلية . (31)

والمرء حين يقول : (قرأ أخوك الكتاب الموضوع فوق المنضدة البيضاء) فإن هذه الجملة هي بنية سطحية ، ولكنها متكونة من بنى عميقة كانت في ضمير المتكلم قبل تحويلها إلى بنية سطحية ، وهذه البنى العميقة هي :

– قرأ أخوك الكتاب .
– الكتاب الموضوع فوق المنضدة .
– المنضدة البيضاء . (24)

وعليه فإن مفهوم التحويل إذن هو الانتقال من البنى العميقة إلى بنية سطحية منطوقة(55)

إلا أن المتأمل لهذه الفكرة من مذهب تشو مسكي، عندما يقارنها بما قاله عبد القاهر الجرجاني حول تحويل الجملة من نفس المتكلم قبل نطقها كجملة مألوفة ، يجد أن تشو مسكي قد أعاد بل كرر ما قاله الألسني العربي عبد القاهر الجرجاني ، حين قال : "إنك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذو على ترتيب الألفاظ في نطقك ... إن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلا بعد أن يفكر في المعاني وترتيبها في نفسه ..."

ولعل الباحث يرى أن تشو مسكي يذهب إلى أن اللغة –كما سنرى – إبداع وفطرة تتحول من قواعد ضمنية مفهومة لدى المتكلم –وهي بنية عميقة- إلى جمل منطوقة فطريا ، في حين يذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أن المتكلم يقصد إلى ترتيب الأفكار في نفسه ثم يخرجها منطوقة ،وبين المذهبين فرق واضح . (24)

ويؤكد تشو مسكي أن البنية السطحية والبنية العميقة مختلفت ان. قال :" نميز بين بنية الجملة السطحية أي ترتيب (الجملة) في فئات وفي أركان والذي يقترن مباشرة بالإشارة الفيزيائية وبين البنية العميقة الضمنية أي ترتيب (الجملة) أيضا في فئات وأركان إلا أن طابع البنية العميقة أكثر تجريدا ".(54) وعليه فإن التمييز بين بنيتين في اللغة : (البنية السطحية) أي البنية الظاهرة عبر تتابع الكلام

الذي يتلفظ به المتكلم ،و(البنية العميقة) أي القواعد التي أوجدت هذا التتابع ، أو بمعنى آخر البنى الأساسية أو الأولية التي بالإمكان تحويلها بواسطة المكون التحويلي ، لتكون الجمل ، والتي هي في مستوى أعمق من المستوى الظاهر في عملية التكلم ، كان له الأثر الكبير في تطوير النظرية الألسنية ، وذلك لأن البنية العميقة وإن لم تكن ظاهرة في الكلام ، إلا أنها إلى حد كبير ضرورية تساعد في عملية فهمه ، ولإعطائه التفسير الدلالي .

من هنا ترتبط البنية العميقة بالدلالات اللغوية أي يتم تحديد تفسير الجمل الدلالي عبرها في حين أن البنية السطحية ترتبط بالأصوات اللغوية المتتابعة ويتم تحديد تفسير الجمل الصوتي عبرها. (56)

ونجم عن هذا التمييز ، بين البنية العميقة والبنية السطحية ،إدخال المكون الدلالي في صلب القواعد التوليدية والتحويلية، واعتبار المكونيين الدلالي والصوتي تفسيريين .

3.4.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج التوليدي التحويلي :

عرف تشو مسكي اللغة في كتابه "البنى التركيبية" قائلا : " من الآن فصاعدا نعتبر أن اللغة كناية عن مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل ،كل جملة منها طولها محدود ومكونة من مجموعة متناهية من العناصر ، وكل اللغات الطبيعية ، في شكلها المكتوب والمحكي تتوافق مع هذا التعريف ، وذلك لأن كل لغة طبيعية تحتوي على عدد متناه من الفونامات (أو الحروف الأبجدية)، وكل جملة بالإمكان تصورها كتتابع فونومات علما بأن عدد الجمل غير متناه " . (56)

ففي نظر تشو مسكي ، إن الجمل قد يكون طولها غير محدود ، ومع ذلك فهي جمل نحوية مقبولة ، وقد أتى بمثال واضح كما هو الشأن في هذه الجملة :"هذا هو الرجل الذي تزوج البنت التي ألفت الكتاب ..." ، وتدل النقاط الثلاث على إمكانية توسيع الجملة إلى الطول المرغوب فيه ، ومن الناحية العلمية ، هناك بعض الحدود التي ينبغي أن تقف عندها الجملة ، وإن كانت غير مضبوطة من قبل النحاة. (31)

ومن جهة أخرى ، فإن اللغة تبتكر بواسطة عدد محدود من الفونامات المتوفرة لديها عددا غير متناه من الأشكال والتراكيب التي تنص على معنى معين ، ويشير أيضا (إميل بنفنيست E. Benveniste) أن جمل اللغة تكون مجموعة غير متناهية كما يذكر (هيمسلوف Hjemstew) أن اللغة هي غير متناهية أيضا. (54)

إن اللغة الإنسانية تقوم على تنظيم منفتح وغير مغلق من العناصر ، تتجلى فيه السمة الإبداعية عبر مقدرة المتكلم على إنتاج وعلى تفهم عدد غير متناه من الجمل لم يسبق له سماعها قبلا ، تختص هذه القدرة بالإنسان وبالذات من حيث هو إنسان ولذا لا نجدها عند أي كائن آخر (54).

وقد أطلق ابن هشام على هذا النوع من الجمل الطويلة مصطلح الجمل الكبرى في مقابل مصطلح الجمل الصغرى ، وتكون الجملة الكبرى جملة اسمية أو فعلية ، أما الجملة الاسمية فخبرها جملة أخرى مثل "زيد قام أبوه " و " زيد أبوه قائم " وأما الجملة الفعلية فهي كما يلي : " ظننت زيدا (يقوم أبوه) " وقد تكون الجملة –في رأيه –صغرى وكبرى مثل :" زيد أبوه غلامه منطلق ".حيث إنّ مجموع هذا الكلام. يعدُّ جملة كبرى. (54)

كما أثار "تشو مسكي" مسالة اكتساب اللغة إلى حد أنّه نظر إلى اللغة الإنسانية على أنّها ملكة فطرية عند المتكلمين بلغة ما لتكوين وفهم جمل نحوية".(5)

أو بمعنى آخر هي ملكة إنسانية يكتسبها الإنسان خلال ترعرعه في بيئة معينة ، وعرف (ابن خلدون) اللغة من هذا المنظور ذاته قائلا :"اعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن

مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن قصد بإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها ، وهو اللسان ، وهي في كل أمة حسب مصطلحاتها "50

إن اللغة الإنسانية في نظر ابن خلدون، هي ملكة مكتسبة ، واعتبار اللغة ملكة يربطها بالقدرات الفطرية لدى الإنسان على نحو يجعل البعد اللغوي خاصية إنسانية .

أما تشو مسكي فقد استند في تعريفه هذا على الثنائية التي نادى بها وهي القدرة (compétence) والأداء (performance) ،حيث تمثل القدرة عنده تلك المعرفة التي يولد الطفل مزودا بها ، وأهم مقومات تلك القدرة هي معرفة الفرد بالقواعد النحوية التي تربط المفردات بعضها ببعض في الجملة ، بالإضافة إلى معرفة مجموعة من القواعد أطلق عليها "القواعد التحويلية (transformational rules) وهذه المعرفة عند تشو مسكي هي التي تمكن الفرد من توليد (generate) وإنتاج الجمل الصحيحة نحويا في لغة معينة ، كما يرى أن هناك جانبين لامناص من الاهتمام بهما لفهم اللغة الإنسانية وطبيعتها وهما :

أ -جانب الأداء اللغوي الفعلي وهو يتمثل فيما ينطق به الإنسان فعلا ، ويتمثل ذلك فيما أطلق عليه مصطلح البنية السطحية (surface structure) .
ب -القدرة اللغوية ،وهي تتمثل فيما أطلق عليه مصطلح البنية العميقة أو البنية التحتية (deep structure) (5)

ولذلك يرى أن الأداء كما يتمثل في البنية السطحية إنما يعكس صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا ما يجري في عمق التركيب من عمليات لغوية وغير لغوية . (5)

وبناءا على ما سبق ذكره ،نستطيع القول أن تعريف تشو مسكي قد وضع بين أيدينا عدة حقائق أخرى عن اللغة ، وهي تتمثل فيما يلي :

1 - أن الإنسان مزود بقدرة فطرية تمكنه من استعمال لغة معينة والإبداع فيها .
2 -تحتل الجملة –ليست المفردات – محور نشاط الاتصال الإنساني أداء وفهما.
3 -اللغة وسيلة لفهم العقل الإنساني .

4.4.2. نقد المنهج التوليدي التحويلي

تعتبر الألسنة التوليدية والتحويلية حاليا المدرسة الألسنية الأوسع انتشارا والأكثر ديناميكية ،ويصعب بالتالي على الباحث إهمال النظرية وإهمال تأثيرها بصورة عامة في مجال الألسنية وفي مجالات إنسانية أخرى كالفلسفة سيكولوجيا والأنتروبولوجيا ...الخ.

حتى أن أغلبية المدارس اللسانية الحالية تحدد مبادئها بالنسبة إلى موقفها من هذه النظرية بالذات، كما أن التاريخ الألسني يتكلم عن الألسنية ما قبل النظرية التوليدية التحويلية و الألسنية ما بعد النظرية التوليدية والتحويلية .مما يعني أنها فجرت ثورة طبعت الدراسات الألسنية بطابعها الخاص .

ولكن رغم تدارك المنهج التوليدي والتحويلي لكثير من نقائص المناهج السابقة ،إلا أنه هو الآخر لم ينج من بعض النقد ،كما صادفته جملة من الصعوبات في الطريق، نشير في هذا المقام إلى بعضها :

1 -يرى عالم اللغة الفرنسي "أندريه مارتيني " (André martinet) أن نظرية القواعد التوليدية والتحويلية في هذا المنهج تعد نتيجة واقعية للغة الإنجليزية وحدها، لذلك يصعب علينا تطبيقها على جميع اللغات ، ذلك لأنها نظرية مقبولة في إطارها اللغوي الإنجليزي فقط ، وشبه مارتيني هذا بما حدث أيام انتشار النظرية اللسانية في أوروبا ،حينما اعتقد اللغويون أنه يمكنهم دراسة أية لغة من لغات

العالم من وجهة نظر لغوية لاتينية محضة ، ولكن هذا عند مارتيني خطأ فادح ،لذلك يرى أنه من غير الصحيح التفكير في وضع نظرية لغوية واحدة باعتبار أن المشكلة اللغوية لا تحل من جانب واحد ، بل يجب أن نتطلع إليها من مختلف الجوانب . (53)

وأردف "سامبسون " قائلا : " إن المدرسة التشومسكية ركزت على اللغة الإنجليزية واللغات الأوروبية القريبة منها من أجل بذل قليل من الوقت وذلك على خلاف المدرسة الوصفية التي بذلت وقتا طويلا لدراسة اللغات البدائية الغربية ، ومن البديهي أن هذا المنهج من شأنه أن يقلص من حظوظ إقامة نظرية عالمية مبنية على الكليات اللغوية (Linguistic inversals) (31)

2 -ويعد تشو مسكي من العقلانيين ، أمثال أفلاطون ، ديكارت ، وهمبولدت . وجوهر الفلسفة العقلانية تنص على أننا نولد مزودين بمعرفة قبلية ، وأننا لا نتعلم شيئا جديدا وأننا نتذكر فقط ، ونتعرف عما هو موجود في عقولنا ،وقد انتقد الكثير من اللسانيين هذا المذهب لأن الإنسان في الواقع يتعلم أشياء لا تحصى عن طريق الخبرة في عالمه الخارجي، وبطريقة ساخرة قال "سامبسون (sampson) " : " إن الاستبطان خاص بالتركيب لا يعول عليه كثيرا لأن اللساني لا يهدف إلا إلى تعليل أحكامه الخاصة بتراكيب لغته ... وفي الوقت الذي حاول فيه تشو مسكي أن يبين كيف يكون التحليل التركيبي تحليلا علميا ... فإنه بدفاعه من منهج الاستبطان يكون قد حكم في آن واحد على أن التحليل التركيبي لم يعد علميا في الواقع العلمي" (31)

3 -ومن هذا المنطلق رأى (سامبسون) أن المغالطة التي وقع فيها تشو مسكي فيما يخص المنهج هي نفسها التي وقع فيها السلوكيون ، فإذا كان السلوكيون يعتقدون أن الباحث لا يجوز له أن يستخدم الاستبطان كدليل ،لأنه لا يؤدي إلى نتائج يقينية فإن تشو مسكي رأى أن لنا عقولا معقدة التركيب والاستبطان مقبول في التنظيم العلمي ، وهكذا راح تشو مسكي يفسر العديد من الظواهر اللغوية تفسيرا استبطانيا كتفسيره تظاهرة اللغة (31).

وفي الحقيقة ،إن الاعتراض على الاستبطان في العلم لا يد ل على عدم وجوده ،بل إن الاستبطان قد يكون عرضة للخطأ مثله مثل المشاهدة ،فضلا على كونه لا ينتقد كما تنتقد المشاهدة .

3 – ويرى مارتيني أن تشو مسكي رجل منطق وعالم رياضيات ولكنه ليس بعالم لغوي ،لأنه نظر إلى اللغة من منظار رياضي منطقي ، وليس من منظار لساني والمفروض أن ندرس اللغة داخل البنية اللغوية ،وليس من ضمن إطارها الخارجي باعتبار أن ذلك المنظار الرياضي قد يمكننا من حل بعض القضايا اللغوية العالقة ولكننا لا نستطيع أن نجعله صالحا لحل كل مشكلة لغوية تواجهنا51

4 -إن الهدف من البحث اللساني عند تشو مسكي هو تحديد المعرفة اللغوية عند المتكلم أي علم المتكلم بلغته ، أما ما يتعلق بالمسار الاتصالي الذي تمارس فيه هذه اللغة من مخاطب ومستمتع ،وكذا الدوافع النفسية للمخاطبين وردود فعل المخاطبين والأنماط التي يتم بموجبها إخضاع الخطاب للنزعة الاجتماعية ...الخ ، هذه الأمور كلها لا تبدوا من الدعائم الأساسية التي بني عليها هذا المنهج ، مما أدى إلى ظهور مناهج لغوية أخرى بنت نفسها من نقائص المناهج اللغوية السابقة كالمنهج السميائي والتداولي ... الخ .

5.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج السيميائي

1.5.2. السيميائية : المفهوم و إشكالية المصطلح

1.1.5.2. مصطلح السيميائية: تاريخه و مفهومه

يمكن رسم حدود السيميائية و تتبع مسيرتها التاريخية و تطورها في إطارين:

الإطار الأول:في التراث العربي

تشير معاجم اللغة العربية إلى أنَّ لفظة (السيمياء) مشتقة من الفعل (سَوَمَ) ، وهي العلامة التي يعرف بها الخير والشر . (52)

وقد وردت مادة (سَوَمَ) في القرآن الكريم خمس عشرة مرة، ما بين (سيماهم، مسومين ، مسومة،.....). (59)

أما المعاجم العربية الحديثة، فتشيرإلى معان أخرى غير العلامة (البهجة، الحسن، القيمة.....). (59)

وتشير دائرة المعارف الإسلامية في مادة (سيمياء) إلى أن هذه الكلمة من الكلمات العربية القديمة التي تعني السمة أو الإشارة أو الإشعار، و تستعمل أيضا للإشارة إلى باب من أبواب السحر. في حين تشير الموسوعات العربية الحديثة إلى أن السيمياء هي علم معاني الألفاظ الذي يبحث في العلاقة بين حروف الكلمة و دلالتها.(59)

وقد آثر ابن خلدون تسمية (السيمياء) بـ (علم أسرار الحروف) و تناولها في حديثه عن السحر، و ذكر أن الفلاسفة يدرجونها في باب الشعوذة (53)

و تشير بعض الدراسات إلى أن اللفظة (السيمياء) لها أصل مشترك ما بين اللغة العبرية و السريانية و اليونانية و العربية، و يمكن افتراض أصل سام لها، كما يمكن أن يكون الأصل الأول للفظة (سيمياء) عربي، لوجود جذورها في المعاجم العربية التأسيسية الأولى ، فضلا على ورودها في القرآن الكريم، و استخدامها عند العرب القدامى و إن كان المفهوم مختلفا بعض الشيء .

و قد تناولت بحوث كثيرة (السيمياء) منذ التأسيس و النشأة حتى المعالجة الإجرائية للمصطلح.

ففي مخطوطة تنسب لـ (ابن سينا) تحت عنوان : كتاب الدر النظيم في أحوال علوم التعليم، كتبه محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري ، ورد في المخطوطة فصل تحت عنوان "علم السيميا"، يقول فيه : "علم السيميا – علم يقصد فيه كيفية " تمزيج القوى التي في جواهر العالم الأرضي ليحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب ، وهو أيضا أنواع فمنه ما هو مرتب على الحيل الروحانية و الآلات المصنوعة على ضرورة عدم الخلا و منه ما هو مرتب على خفة اليد و سرعة الحركة ، و الأول من هذه الأنواع هو السيميا بالحقيقة و الثاني من فروع الهندسة وسنذكره و الثالث هو الشعوذة .." (54)

وكذلك نجد أن "ابن خلدون" خصص فصلاً من مقدمته ، لعلم أسرار الحروف ، فعلم أسرار الحروف هو – كما يقول – "المسمى بالسيميا ، نقل وضعه من الطلسمات إليه في اصطلاح أهل التصوف من غلاة المتصوفة ، فاستعمل استعمال العام في الخاص و ظهر عند غلاة المتصوفة عند جنوحهم إلى كشف حجاب الحس و ظهور الخوارق على أيديهم .....ومن فروع السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في المعرفة....."(57)

و يعد عادل فاخوري من الباحثين العرب الأوائل الذين عالجوا هذه المسألة بشيء من التفصيل، فقد ذكر أن العرب توصلوا إلى وضع أسس عامة لنظرية العلامات (Theory of Sign) ،أو السيمياء (Semiotic) تحت عنوان الدلالة Semantic ، و كان ذلك في إطار تعيين العلاقة التي تربط اللفظ (Pronunciation) بالمعنى Meaning ، أو ربط الدال (Signifier) بالمدلول (Singified) ، ثم استعرض أربع صور للدال و المدلول استخدمها العرب :

1- كونها لفظًا كأسماء الأفعال الموضوعة لألفاظ الأفعال ، أي : (عبارات اللغة الماورائية التي تدل على العبارات الموضوعة لها من اللغة الشيئية).

2- كون اللفظ دالا و المدلول غير ذلك ، كزيْد الدال على الشخص الإنساني .

3- كون المدلول لفظا و الدال غير ذلك، كالخطوط الدالة على الألفاظ، مثل الخط المستقيم و الخط المنحني، و نحو ذلك.

4- كونها غير لفظ، كالعقود الدالة على الأعداد.(59)

و يشير أيضا إلى أن السيمياء العربية اقترحت تقسيما آخر يعتمد على نوعية العلاقة الدلالية ، وهو:

1- الدلالة العقلية: يكون بين الطرفين علاقة علة و معلول، مثل: الدخان فهو علامة على النار، والكلام الصادر هو قرينة وجود متكلم.

2- الدلالة الطبيعية: يكون بين الطرفين علاقة تصويرية ، بحيث يكون من طبع المتلقي الانتقال إلى المدلول عند حضور الدال مثل حمرة الوجه عند الخجل.(59)

و بين أيضا أن العرب قد تأثروا في هذا الميدان بالمدرستين: المشائية و الرواقية.

هكذا نجد أن السيمياء عند العرب ترتبط أحيانا بعلم السحر و الطلسمات التي تعتمد أسرار الحروف و الرموز، و أحيانا تصبح فرعًا من فروع الكيمياء و أحيانا أخرى ترتبط بعلم الدلالة و المنطق و علم التفسير و التأويل.....و هذا كله ليس بعيدا عن حقولها المعاصرة.

الإطار الثاني: في التراث الغربي

إن مصطلح السيميائية الذي كثيرا ما يقابله، دون تدقيق المصطلحات الغربيةSémiologie – "Semiologyو " Sémiotique – Semiotics " هما آتيان من الأصل الإغريقي المركب " Semeiotike "."(55)

و قد بدأ التفكير السيميائي عند الإغريق متمثلا في المدرسة الشكية (Scepticisme) التي كان غرضها التشكيك في المعرفة على يد الفيلسوف (انيسديموس Aenesidemus

في القرن الأول قبل الميلاد حيث عمل على تصنيف العلامات المختلفة في عشر صيغ مرتبطة ارتباطا وثيقا بدراسة الطب. (59)

ثم تطورت الرؤية العلاميَّة على يد الطبيب (امبريكوس Empiricus) في القرن الثاني الميلادي، الذي صنف العلامات المستترة، أما (جالينوس Galenos) فقد ميز بين العلامة العامة و العلامات الخاصة التي تشير إلى شيء محدد في القرن نفسه (59)

و يعد(الرواقيون STOICS) أول من تكلم عن وجهي العلامة، و هما الدال و المدلول.

و قد أصبح مصطلح السيميائية أكثر اتساعا و انتشارا و استخداما في نهاية القرن السابع عشر على يد الفيلسوف (جون لوك JOHN LOCKE)، ثم تبلور المصطلح و أخذ مداه الواسع على يد كل من (سوسير Ferdinand de Saussure)، 1857-1914م ، و بيرس (C-S-Peirce)، 1859-1914م .(59)

أما في القرن العشرين فقد تطورت السيميائية تطورا كبيرا من خلال خصوصية موضوعها، وتشعب أقسامها، و ارتباطها بمباحث اللغة و اللسانيات و غيرها من الدراسات الابستمولوجية المختلفة.

و تتحدد السيميائية بدراسة العلامات و استعمالاتها، و دراستها تتضمن كيفية استعمال الكلمات وأصواتها فضلا عن الإشارات و أنظمة الاتصال و غير ذلك. كما تتضمن ميادين الرموز و علم الدلالة، و علم تركيب الجمل، و العمليات التداولية، فضلا عن الروابط بين الظواهر السلوكية و الرموز.(59)

إنها ذلك العلم الذي يدرس حياة كل العلامات المستخدمة في المجتمع كاللغة و العادات و الطقوس .....الخ، و يبين مكوناتها و قوانين تنظيمها . و مع ذلك فإنها فرع من علم النفس الاجتماعي و من ثمة من علم النفس العام.

و ما اللسانيات حسب – دي سوسير – إلا جزء من السيمياء – و من الممكن تطبيق القوانين التي تكتشفها السيمياء على اللسانيات . (31)

2.1.5.2.إشكالية المصطلح

فيما يخص إشكالية المصطلح، فقد تحصلت لمصطلح السيميائية ترجمات عدة، و مفاهيم مختلفة، وربما كان سببها تعدد المقابلات العربية الموضوعة للمصطلح الأجنبي الواحد، فضلاً عن اختلاف مدلول المصطلح الواحد من مدرسة إلى أخرى، و تداخل القطاعات المعرفية التي أدت إلى اختلاط المفاهيم ، و بالتالي صعوبة تحديد المعجم لتلك المصطلحات .

و نظرًا لتعدد الترجمات المفهومية و النقلية لهذا المصطلح عمدنا إلى تصنيف تلك المصطلحات وجعلها في مجموعتين:

الأولي: المصطلحات المفهومية (مضمونية)

الثانية : المصطلحات النقلية (الشكلية). (59)

المجموعة الأولي مر ت بعملية ترجمة (Translation) ، أو وضع مصطلح عربي مقابل المصطلح الأجنبي، و قد تمحورت هذه المجموعة حول عدة ترجمات تبدأ من المصطلح (علم العلامات) ، وكانت هذه المجموعات هي اتجاه أغلب المترجمين في ترجمة مصطلح " Semiotics of Semiology " (59)

أما المجموعة الثانية فقد مرت بعملي ة النقل (Transference) أي وضع مصطلح عربي مقابل المصطلح الأجنبي بواسطة نقله صوتيا (فونيماً) و مورفيمًا و تطويعه لموافقة العرف اللغوي العربي.

و هذه المجموعة هي أقل تشعبًا من سابقتها لأنها تنحصر بين مصطلحين اثنين: (Semiotic) و (Semiology) على التوالي . (59)

و يرجع اختلاف الترجمة بين المجموعتين إلى اختلاف ثقافة المترجمين أولاً، واقتران كل مصطلح من المصطلحين السابقين بمدرسة معينة.

فالسيميوطيقا وُضعت بوصفها مصطلحا نقليا عن (Semiotic) و هي عند لوك معرفة العلامات، و عند بيرس نظرية العلامات، و عند موريس النظرية العامة للعلامات، و عند إيكو العلم الذي يدرس سائر ظواهر الثقافة بوصفها أنظمة للعلامات. (59)

أما السيميولوجيا فقد وضعت بوصفها مصطلحا نقليًا عن (Semiology)، و هي ترتبط أساسا بالثقافة لأنجلو-سكسونيق ، و تبرز بصورة واضحة عند سوسير. (62)

و هناك فروق دقيقة بين المصطلحين السابقين فـ (السيميوطيقا) مجالها أوسع من مجال (السيميولوجيا) ، و الاختلاف بين المصطلحين يرجع إلى الاختلاف في المعنى، و هو حصيلة صراع مفاهيم بين سيميوطيقا بيرس و سيميولوجيا سوسير ، إنه اختلاف يرتكز أساسا على التعارض بين نوعين من العلامة، فالعلامة عند سوسير تتكون من اتحاد دال و مدلول بوجود مرجع (Référence) ، في حين العلامة عند بيرس تتكون من الوسيلة و التعبير و الموضوع. (61)

و مصطلح (السيميائية) هي أقرب المصطلحات إلى روح البحث وجمعه (سيميائيات) و نعني به (علم العلامات)، و ذلك لقربه من المصطلح الأصل (Semiotic) أولا، و تناسقه و انسجامه مع النبر و الإيقاع العربيين ثانيا، فضلا على أن هذا التوجه يوافق توجه الجمعية الدولية للسيميوطيقا التي تبنت في فرنسا سنة 1974 مصطلح (Semotic) للإشارة إلى هذا العلم. (59)

2.5.2.المطلب الثاني : المدارس السيميائية و اتجاهاتها

1.2.5.2. المدارس السيميائية

ارتبط نشوء الأبحاث السيميائية و حقولها المعرفية بمدرستين هما :

1 -المدرسة الفرنسية، و تبدأ مع سوسير.
2 -المدرسة الأمريكية، و تبدأ مع بيرس.

يعد سوسير من أوائل علماء السيميائية العظماء، فقد كانت نظريته في اللغة مؤسسة إلى حد كبير على فحص العلامة اللغوية. (59)

لقد تنبأ سوسير بولادة علم مستقل يدرس حياة الإشارات و العلامات و يربطها بالنواحي الاجتماعية إنه علم السيميولوجيا " Sémiologie " .

و ركز في أبحاثه على مبدأ أن اللغة نظام من العلامات (Systemofsigns) تعبر عن الأفكار، و عد العلامة كيانا ثنائيا يتكون من الدال و المدلول، الدال يقابل الصورة الصوتية (الحسية)،أما المدلول فيقابل (الفكرة) أو التصور الذهني للدال، و كلاهما يحوي طبيعة نفسية .

و هكذا ميز دي سوسير بين صورة الكلمة و مفهومها لا بين الاسم و المسمى، و ميز داخل العلامة بين مستويين، النفسي و المادي، النفسي هو حصول الصورة السمعية و المفهوم، و المادي بوجود الصوت (الشكل الخارجي) و يمكن توضيح ذلك على النحو التالي:

المستوى المادي

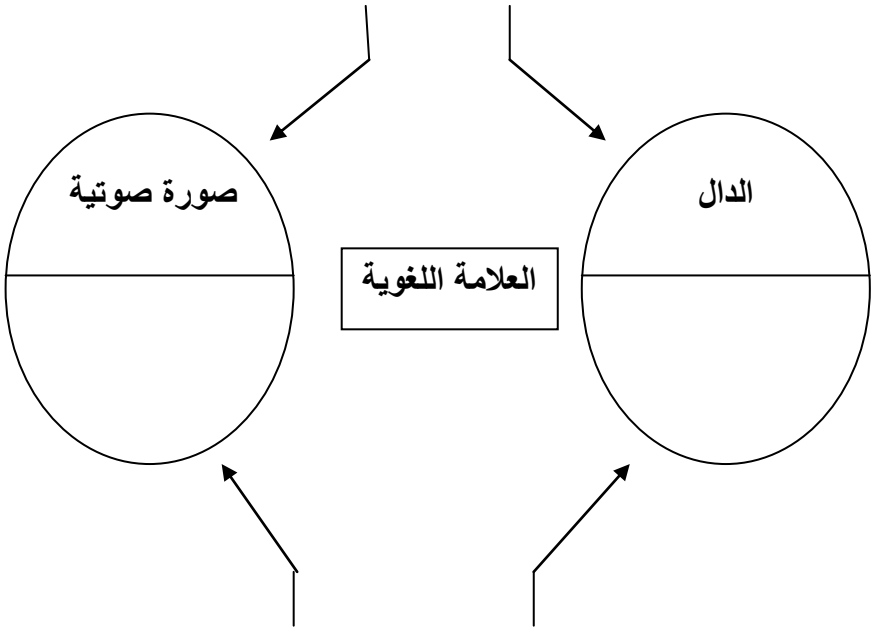

المستوى النفسي

شكل رقم 01: يوضح محتوى العلامة اللغوية(69)

و العلاقة بين الدال و المدلول في العلامة اللغوية عند دي سوسير هي علاقة اعتباطية، أي لا وجود لصلة مباشرة بين الدال (الصورة الصوتية) و المدلول (المحتوى الذهني للدال)، و قد تبع سوسير العديد من النقاد وتشكلت بعده عدة مدارس منها مدرسة جنيف، و مدرسة باريس السيميائية، ويمثلها قريماس (Greimas) و المدرسة الدنمركية بقيادة هيلمسلاف (Hjelmslev).

و يعد رولان بارت (Roland Barthes) و جوليا كريستيفا(Julia Kristeva) وتزفيتان تودر وف (Tzvetan Todorov)، أهم رواد المدرسة الفرنسية الذين أضافوا إليها الشيء الكثير من خلال دراستهم السيميائية المتنوعة. (59)

أما المدرسة الأمريكية فقد نشأت مع أبحاث بيرس. ولد شارل بيرس في ولاية ماساشو ستس الأمريكية ودرس في جامعة هارفارد، و قد نشرت أعماله بعد وفاته في ثمانية مجلدات (61)

لقد صنف بيرس العلامة و منطقها، و ذكر أن العلامة وحدة تركيبية متكونة من ثلاثة أجزاء ، الموضوع (Object)، و الرابطة (الوسيلة) و المحمول (الممثل) Interprétant " . (59)

فالعلامة بالنسبة للوسيلة هي ثلاث (كيفية، عينية و قانونية):

1 -العلامة الكيفية: هذه العلامة مجرد ظاهرة أو كيفية بحتة مثل الألوان و الصفات الحسية.
2 -العلامة العينية: تكون عندما يحصل في الخارج شيء أو حدث فردي كإشارات المرور.
3 -العلامة القانونية: لا ترتبط بتحقق مخصوص بل تبقي هي في ذاتها، مثل الرموز الرياضية. (59)
4 -أما العلامة بالنسبة للموضوع الذي تحيل عليه، فيقسمها بيرس على (الأيقونة Icon)، و(المؤشر Index) و (الرمز Symbol)

- الإيقونة: علامة تدل على موضوعها من حيث أنها ترسمه أو تحاكيه و تقابل (القرينة) في البلاغة العربية.
- المؤشر: علاقة لها رابط فيزيقي مع الموضوع الذي تحيل عليه و هي حالة الأصبع الذي يشير إلى موضوع ما، و حالة دوارة الهواء المحددة لاتجاه الريح، أو الدخان كدليل على وجود نار. (56)
- الرمز: علامة تدل على موضوعها، أو هو علامة قد اختيرت اتفاقا لتوحي بمرجعها الأصلي مثل: الحمامة(رمز السلام).(59)

أما العلامة بالنسبة للتعبير: فيقسمها إلى التصور و التصديق و الحجة.

1 -التصور: كل علامة مفردة أو مركبة، تصلح لأن تكون حكما أو حدًا في الحكم.
2 -التصديق: كل علامة قابلة للحكم، أي أنها تقبل الصدق و الكذب
3 -الحجة : هي تأليف من العلامات لا يتعلق سوى بالقواعد كالقضايا البرهانية. (59)

2.2.5.2. الاتجاهات السيميائية

ظهرت اتجاهات سيميائية عديدة نظرا للثورة المعلوماتية التي أحدثتها السيميائية، وقد تشعبت تلك الاتجاهات نظرا لاختلاف مسالك باحثيها .

و يمكن حصر الاتجاهات التي انبثقت منها المعطيات السيميائية، بثلاثة اتجاهات :

1- سيمياء التواصل semiotic of communication

2- سيمياء الدلالة Semiotic of semantic

3- سيمياء الثقافة semiotic of culture

و الاختلاف بين هذه الاتجاهات هو اختلاف يرجع إلى وظيفة الدليل (Signification function)

فسيمياء التواصل تقسم العلامة إلى دال و مدلول وقصد .(59)

و العلامة عندهم أداة تواصلية قصدية تستخدم من أجل نقل المعلومات ، و من أجل قول شيء ما، أو الإشارة إلى شيء ما يعرفه شخص ما يريد أن يشاطره الآخر هذه المعرفة ، إنها بذلك جزء من السيرورة التواصلية من نوع : (مصدر – باث- قناة- إرسالية – مرسل إليه) .

و عليه فإن الدليل لا يكون فعالاً إلا إذا كان أداة تواصلية قصدية ، لذا انحصرت عندهم موضوعات السيميائية في الدلائل على مبدأ الاعتباطية.

و يمثلها كل من (وبر يتو ، جورج مونان و مارتيني، بويسنس، و كرايس ، و أوستين).(59)

و لا تنظر سيمياء التواصل إلى الوظيفة التوصيلية على أنها تختص بالرسالة اللسانية فحسب، بل تتعداها إلى البنيات السيميائية التي تتشكل منها الحقول غير اللسانية الأخرى. (59)

أما سيمياء الدلالة فيمثلها بشكل خاص (رولان بارث) حيث يشير إلا أن اللغة لا تستنفذ كل إمكانيات التواصل ، فنحن نتواصل ، توفرت القصدية أم لم تتوفر، بكل الأشياء سواء كانت طبيعية و ثقافية ،أو اعتباطية أم غير اعتباطية. (61)

و من هنا جاء رأيُه في أن اللسانيات أصل و السيميائيات فرع منها على خلاف ما ذهب إليه سوسير.

و العلامة عنده ثنائية المبنى، متكونة من الدال و المدلول، كما لا تقتصر عنده على المجال اللساني بل تتعداه لتتناول العلامات الدالة في الحياة بصورتها الشاملة. (59)

و قد ركز بصورة رئيسية في هذا لاتجاه على أربعة عناصر (اللسان و الكلام، الدال و المدلول، المركب و النظام، التقرير و الإيحاء) .

أما الاتجاه الثالث (سيمياء الثقافة) فقد انبثق بشكل رئيس من الفلسفة الماركسية و من أهم رواده (يوري لوتمان- إينانوف – أوسبنسكي – تودوروف و بياتيجورسكي و غيرهم) وهم أحفاد و أشقاء جماعة الشكليين السوفيات . و المعروف أن الشكلانيين السوفيات كانوا أول من نادى بأدبية الأدب بشكل منظم و بالعودة إلى النص و الانطلاق منه و تفكيك نظامه اللساني . كذلك اهتمت مجموعة أخرى في إيطاليا بسيميائيات الثقافة و الأدب (61)

و تنطلق موضوعات هذا لاتجاه من عد الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية و أنساقا دلالية ، وما الثقافة في نظر أصحاب هذا الاتجاه إلا إسناد وظيفة للأشياء الطبيعية و تسميتها و تذكرها، و هي بذلك تكون مجالا توصيليا تنظيميا للإخبار في المجتمع الإنساني.

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أنَّ العلامة تتكون من بناء ثلاثي (الدال والمدلول والمرجع) وهو تصور يختلف عن بناء بارث الثنائي ، ويتفق إلى حد ما مع بناء بيرس الثلاثي (المصورة، المفسرة، الموضوع) و تبعا لذلك استخدم أصحاب هذا الاتجاه مصطلح (السيميوطيقا) البريسي بدلا من مصطلح (السيميولوجيا) السوسيري.(59)

وأخيرا يمكن إجمال ما قيل في الاتجاهات السيميائية المعاصرة بالمخطط الآتي:

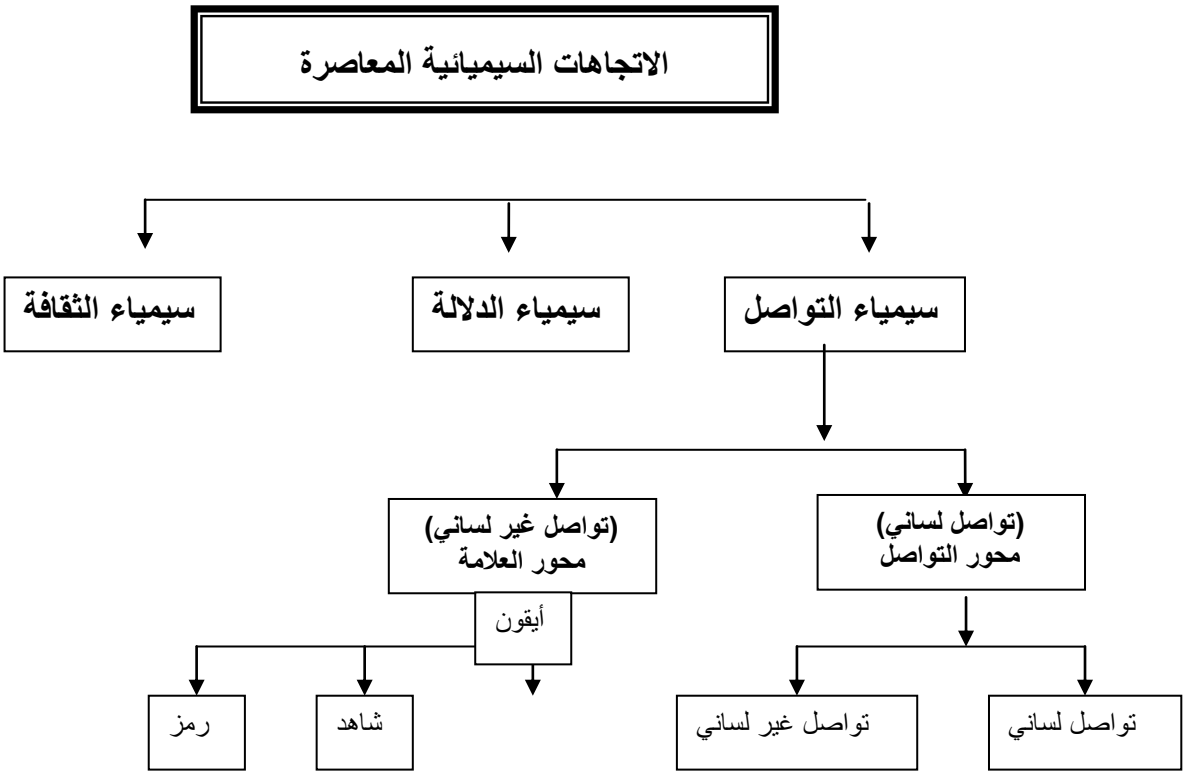

الشكل رقم 02: الاتجاهات السيميائية المعاصرة (69)

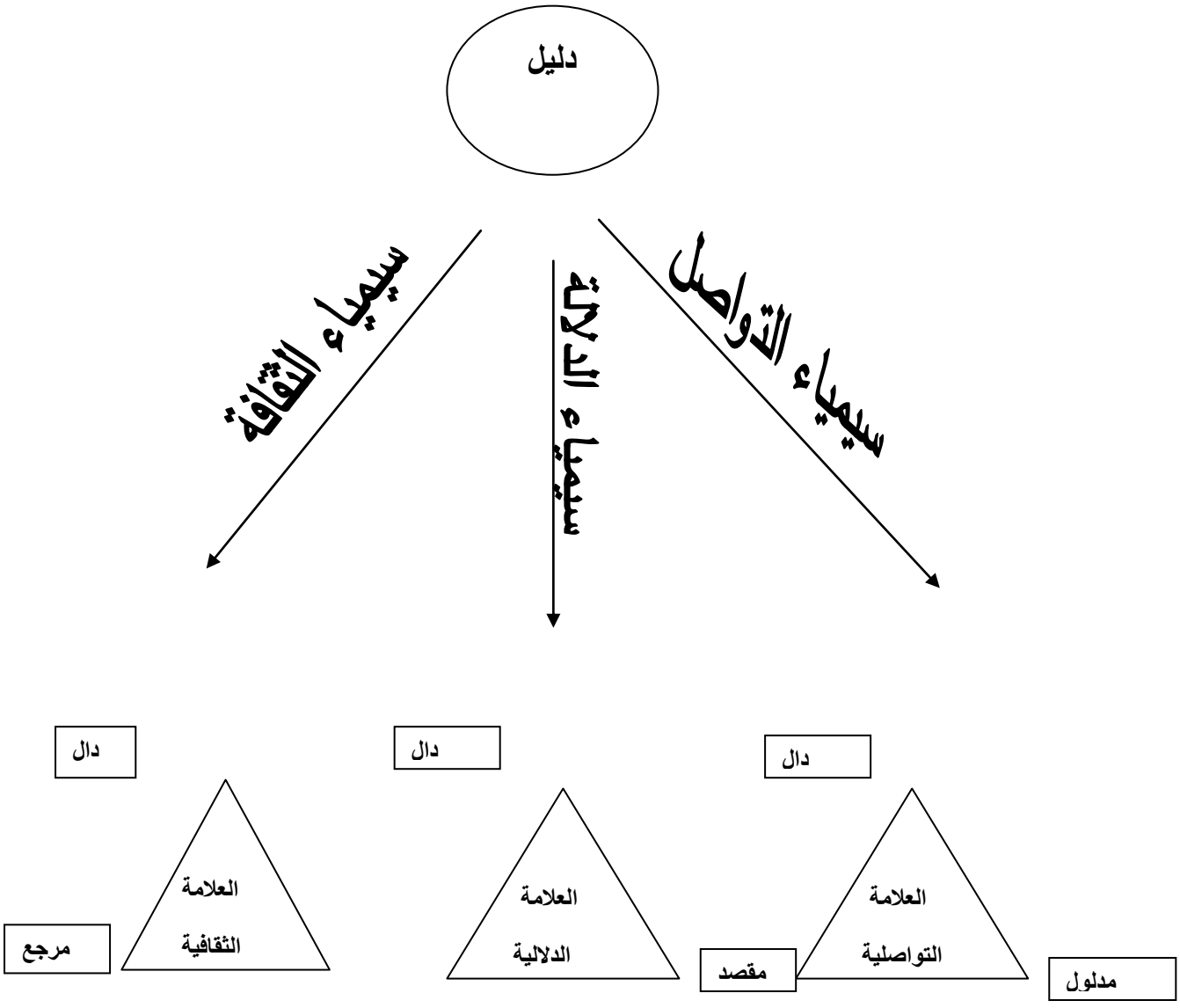

الشكل رقم 03: يبرز الاتجاهات السيميائية المعاصرة(59)

3.5.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج السيميائي

السيميائية منهج لدراسة العلامات، ولعل من المفيد الإشارة إلى أن تباشير هذا المنهج كانت من نتائج رؤية اللسانيات السويسرية.

وعلى هذا التصور الجديد عرَّف المنهج السيميائي اللغة:

- بأنها نظام من العلامات (System of Signs) :
- النظم السمعية: لغة منطوقة تخاطب الأذن.
- النظم البصرية: لغة أبجدية الصم البكم تخاطب البصر ،و قراءة حركات الشفاه.
- النظم اللمسية: لغة المكفوفين تخاطب اليد – نظم الإشارات- ولغة الألوان والدخان و لغة الصفير، و سواها، و كل هذه الأنظمة تشترك مع اللغة في الأصل الذي نهضت عليه. (20)

قال سوسير " اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن أفكار، ومن هذه الناحية فهي مماثلة للكتابة وأبجدية الصم و البكم والطقوس الرمزية وصيغ الاحترام و الإشارات العسكرية، و رغم هذه المماثلة تبقى اللغة أهم الأنظمة...." (61)

ومهما يكن من أمر، فإن دي سوسير يعد بحق أول من أثبت ميدانيا بأن اللغة نظام قائم بذاته، و شبكة واسعة من العلامات و التراكيب ، حيث لا تكتسب مكونات قيمها إلا من خلال علاقتها بالكل.

تعطينا اللغة، - في ضوء المنهج السيميائي – النموذج الوحيد لنظام يمكن وصفه بأنه سيميائي في بنيته الشكلية وفي تأديته لوظيفته، فاللغة:

1 - هي في المقام الأول ظاهرة منطوقة تحيل إلى موقف ما.(57)
2 - تتكون من حيث الشكل من وحدات مستقلة تمثل كل واحدة منها علامة.
3 - تنتج اللغة و تستقبل في إطار قيمة إشارية مشتركة بين أعضاء المجتمع الواحد.
4 - تمثل اللغة التحقيق الواحد للاتصال بين ذات المتكلم وذات المخاطَب غير أن هذا التواصل مشروط بالقصدية و إرادة المتكلم في التأثير على غيره ، إذ لا يمكن للدليل أن يكون أداة التواصلية القصدية، ما لم تشترط التواصلية الواعية .(61)

أما فيما يخص " العلامة اللغوية" فإنها لا تقرن شيئا بالاسم وإنما تقرن مفهوما بصورة سمعية، ليس الصوت المسموع، أي الجانب المادي، بل هو الأثر النفسي الذي يتركه الصوت فينا، و بالتالي فالنسق بين التصور و الصورة السمعية هو علامة . فالعلامة اللغوية إذن وحدة نفسية مزدوجة، و العنصران (مفهوم-صورة سمعية) مرتبطان معا ارتباطا وثيقا، و يتطلب وجود الواحد منهما وجود الثاني. (61)

ومن خلال ما سبق ذكره نرى، أن مفهوم اللغة في ضوء المنهج السيميائي هي: ذلك النظام من العلامات اللغوية (دال – مدلول)، تعبر عن أفكار داخل حياة اجتماعية، في إطار سيرورة تواصلية قصدية.

6.2.مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي

1.6.2. المنشأ الفلسفي للتداولية اللسانية و مفهومها

1.1.6.2. المنشأ الفلسفي للتداولية

في سنة 1939، ميز الفيلسوف الأمريكي (شارلز موريس) Charles moris في مقال كتبه في موسوعة علمية، بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة و هي:

- علم التركيب: الذي يدرس العلاقات القائمة بين التعابير اللغوية بعضها ببعض
- علم الدلالة: الذي يعنى بدراسة الرموز و علاقاتها بما تشير إليه (58)
- وأخيرا التداولية التي تُعنى - في رأي موريس- بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها، والذي استقر في ذهنه أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر المتكلم و ظرفي المكان و الزمان (الآن، هنا) و التعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل ومع ذلك ظلت التداولية كلمة لا تغطي أي بحث فعلي. (59)

أما الفيلسوف (جون أوستين) فقد ألف عام 1962 كتابا يحمل عنوان "كيف تفعل الأشياء بالكلمات" How to do things with words ، و قد كان له شأن في تطور التداولية، و تلخصت فكرة (أوستين) في أمرين:

أ - يتمثل الأول في إقراره بأن كل قول يعبر عن عمل
ب -أما الثاني فيمثل في رفضه لثانية جداول الحقيقة (الصحة و الخطأ) (65)
ومن خلال كتابه المذكور آنفا أورد تمخيصا (لأفعال المتكلم الإنجليزية) من مثل:

"أستقيل" فإن مثل هذه الألفاظ الإخبارية لا تملك قيمة في الحقيقة المنطقية بالرغم من أنها جمل إخبارية صحيحة، وهي تبدو من خلال تصوره تفتقد للخواص الأساسية للجمل الإخبارية، و أنكر أوستين إمكانية اعتبارها جملا صحيحة أو خاطئة ، و برهن أن طبيعة هذه الجمل "إنجازية" و ليست إخبارية لأن معانيها تقترن بأداء عمل.(66)

ففي قول "أستقيل" توحي بأن شخصا يستقيل في الواقع، و على هذا النحو فإن أمثال هذه الجمل لا تحتاج إلى شروط الصحة و الخطأ في الصيغة المنطقية لتفسيرها، و لكنها تحتاج إلى "شروط الاستخدام" (66) .

وإن تقصي أوستين للألفاظ الإخبارية (التقريرية) قاده إلى نتيجة مفادها أن لمثل هذه الأفعال جميعها و ليست الإنشائية (الإنجازية) فقط طبيعة الأداء. من خلال إضافة سابقة لها على شكل فعل إنجازي ضمني، مثل: كم الوقت ؟

أسألك أن تخبرني كم الوقت؟ (66)

وحتى في الجمل الإقرارية المحايدة التي تعبر عن حقيقة ما مثل: "(الشمس طالعة) يمكن القول أنها جملة تحوي فعلا إنجازيا ضمنيا مثل: أنا أقول أن (الشمس طالعة) ، و يرى أوستين من خلال دراسته للمعنى أن الظواهر اللغوية هي أساسا أفعال إنجازية.

وإن هذا المعنى هو دعوة إلى تجاوز اهتمامات علم المنطق التقليدي المحدد بالمعنى الاختياري فقط. كما ذهب أوستين أيضا إلى القول أن الفعل اللغوي يؤلف في الوقت ذاته ثلاثة أنواع من الحدث:

حدث تعبيري: (التعبير) و هذا النوع ينضوي تحت علم الدلالة القائم على شروط الحقيقة، وهو فعل لفظ تعبير بدلالة معنى محددين.

حدث تأثيري: الذي بواسطته أحدث رد فعل و تأثيرا لدى المتلقي، و هذا النوع يقع خارج تحديات المعنى و اللغة لأنه يتعامل مع سبب اللفظ أو نتيجته، وأن تأثير كلماتي في إقناع شخص بإقراضي مثلا، إنما يعتمد على عوامل نفسية – اجتماعية أو مادية.

حدث إنشائي : يمثل في إنجاز عمل ما بإنتاج الفعل الإنشائي، وتحقيق قصد المتكلم، و قد ركز أوستين على هذا النمط باعتباره القطاع الخاص بالتداولية أي (المعنى في السياق)، و من خلال هذا الربط تمكن أوستين و تلميذه "سيرل" من التفكير بالبادئة الإنجازية كقوة حقيقية تشير إلى قوة التنفيذ (66) و هذا المصطلح يستخدم اليوم بشكل واسع ليضم ليس فقط الدلائل اللغوية الصريحة القصد و لكن أيضا المؤشرات غير اللغوية المصاحبة للغة (حركة اليدين، العينين،.....الخ)

توفي أوستين سنة 1960 بعد فترة وجيزة من تقديم محاضرات "وليام جايمس" التي نشرت بعد وفاته (سنة 1962)، ومع ذلك ذاع صيت عمله و كان وراء العديد من البحوث اللاحقة في مجال الأعمال اللغوية.

لقد احتل الفيلسوف الأمريكي(جون سيرل John Searle) موقع الصدارة بين أتباع أوستين ومريدية، فلقد أعادة تناول نظرية أوستين وطور فيها بعدين من أبعادها الرئيسية هما: المقاصد والموضوعات.

و بالفعل يمكننا اعتبار الأعمال اللغوية و الجمل التي أنجزت بواسطتها وسيلة تواضعية للتعبير عن المقاصد وتحقيقها، و هذا المظهر كان حاضرا لدى أوستين ولكن سيعرف أوج تطوره لدى سيرل.(65)

بعد أن استفاد (سيرل) من دروس أوستين أضفى نوعا من الانتظام على أفكار أستاذه، بأخذه لفكرة أن المعنى هو نوع من الحدث، و اعتبر أن دراسة اللغة هي جزء فرعي من نظرية الحدث.

وتدور فكرته حول الوظائف أو المعاني المرتبطة بالأحداث الإنجازية، و بإيحاء من هذه الفكرة قدم سيرل تعاريف للأحداث الإنجازية المتنوعة ضمن أربعة أنواع من القواعد واعتبرها شروطا، ينبغي أن يستوفيها أداء الفعل اللغوي حتى يكون الأداء مُوفقاً و هي:

1- قاعدة المحتوى الإخباري (مضمون القضية):

ويقصد بهذه القاعدة تحديد أي نوع من المعنى الذي يعبّر عنه بالقسم الإخباري من اللفظ فالمعنى الذي يشير إليه، أعد حدث مستقبليا بالنسبة للمتكلم.

2- قاعدة التحضير (التقديم): و يقصد بها تحديد الشروط المسبقة قبل أداء الحدث الكلامي.

3- قاعدة الأمانة (الإخلاص): تعني تحديد الشروط التي يجب أن تتحقق إن كان على الفعل أن ينفذ بإخلاص و دقة.

4- القاعدة الأساسية (الجوهرية) تحديد كيف يجب أن يحسب الحدث الكلامي (66)

ومن خلال هذه القواعد يرى (سيرل) أنه بإمكاننا تمييز أحداث كلامية مختلفة بسهولة، ولنا أن نتصور على سبيل المثال فعل (النصح) مثلا:

أ - المحتوى الإخباري: عمل مستقبلي بالنسبة للمتلقي.

ب -قاعدة التقديم : 1- يعتقد المتكلم لسبب ما أن الفعل سيفيد المتلقي

2- ليس واضحا بالنسبة للمتكلم و المستمع أن المستمع منهما سينفذ الفعل في الأحوال العادية

ج- قاعدة الأمانة: يعتقد المتكلم أن الفعل سيفيد المتلقي

د- القاعدة الأساسية: محاولة جعل الفعل المطلوب إنجازه في مصلحة المتلقي.

ولتوضيح الاختلافات أضاف سيرل التعليق التالي: "إن نصحك ليس محاولة لحملك على فعل شيء بمعنى الطلب منك، فالنصح شيء يشبه إخبارك بشيء يكون في أفضل مصالحك. (66)

أما (بول جرايس)، فقد حاول مثل سيرل مجابهة إشكالية كيفية اختلاف المعنى في التخاطب الإنساني العادي عن ذلك المعنى الدقيق المحدود في المعنى المتعلق بشروط الحقيقة، وهذه الإشكالية طبعا أدت به إلى شرح الاختلافات بين ثنائية (ما يقال) و (ما يعني).

لما (ما يقال): فيقصد بها ما تعنيه الكلمات ظاهريا وغالبا ما يقع تحت طائلة ما يمكن شرحه وفق شروط الحقيقة، بمعنى أنه يتألف من المعاني الواضحة الظاهرة فقط.

- (ما يعني): هو التأثير الذي يحاول المتكلم متعمدا إحداثه في المتلقي من خلال إدراك هذا الأخير لهذا القصد، بمعنى تضمنها لمعاني ضمنية. (3)

وفي ظل البحث عن حل لهذه الإشكالية يقترح جرايس مبدأ بين المتحاورين عليهم أن يراعوه و هو (مبدأ التعاون)، بمعنى يجب أن يتعاون المتخاطبون على الوصول إلى الغرض المطلوب من دخولهما في التخاطب، وصاغ قواعد أربعة تحكم هذا المبدأ وهي:

أ- قاعدة كيف الخبر: و القاضي بأن يجعل إسهامك صحيحا وخصوصا فيما يتعلق بالآتي:

1- لا تقل ما تعتقده خطأ (66)

2- لا تقل ما يعوزك فيه البرهان الكافي

ب- قاعدتا كم الخبر:

1- لتكن إفادتك للملتقى على قدر حاجته

2-لا تجعل إسهامك أكثر إخبارا مما هو مطلوب

ج- قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال: اجعل إسهامك على صلة مباشرة بالمضمون.

د- مبدأ الأسلوب/ الكيفية: كن واضحا خصوصا في:

1- تجنب الإبهام

2- تجنب اللبس

3- كن مختصرا

4- كن منظما (66)

وهكذا فتح "مبدأ التعاون" بابا واسعا في تطور التداولية اللسانية وتنويع الدراسات المتعلقة بموضوع التواصل الإنساني، إلا أنه مع ذلك لم يسلم من انتقادات عديدة، باعتبار أن مبدأ التعاون والقواعد المتولدة عنه لا تضبط إلا الجانب التبليغي من التخاطب، أما الجانب التمهيدي فقد أسقط إسقاطا، و يعلق " ثوماس" 1986 في الفصل الثاني على أن مبدأ التعاون هو وسيلة يشرح كيفية وصول الناس للمعاني، بالرغم من أنه ليس هناك تصور يقضي بأن الناس صادقون و يعنون ما يقولون.(66)

2.1.6.2. مفهوم اللسانيات التداولية

يعتبر مفهوم اللسانيات التداولية من أهم المفاهيم الحديثة التي شدت انتباه الدارسين و الباحثين لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة ، و لم يتم استعمال التداولية من حيث هو معنى عام، في الثقافة اللاتينية، قبل سنة 1438 للميلاد. و يعود في أصله الأجنبي إلى اللغتين الإغريقية (Pragmatikos) ، و اللاتينية بالمعني القانوني (Pragmatika Anctio)، ولهذا المفهوم في الثقافة الغربية عدة استعمالات:

قانونية – وهو الاستعمال الأصل فيما يبدو .(60)

حيث استعمل هذا المفهوم في القرون الوسطى في فرنسا في مجال الدراسات القانونية في عبارات مثل (Pragmatique sanction) (Pragmatica Sanctio) (66)

ثم شاع استعماله أيضا في المجال الفلسفي و الرياضي، و أخيرا اللساني (الدلالي) ، و البلاغي (السياقي)، و السيميائي (التأويلي) (67)

أما استعمال المصطلح المدروس في المجال الفلسفي، إنما هو لوصف كل فكرة أو ظاهرة لا تتجلى إلا من خلال تطبيقاتها العملية أي نتائجها و أثارها المنعكسة على الواقع.

و عليه فإن التطور المفهومي لهذا المصطلح قد نحا نحو الدراسات اللسانية و أخذ يرسم مجاله من خلال جملة من الشروط أهمها:

الشرط الأول: إن التخوف من الإغلاق في الوصف النظري ومحاولة البعد عنه هو في حد ذاته سمة للتحليل الذي يطمح إلى أن يكون عمليا أي براغماتيا .

الشرط الثاني: إن الأخذ في الاعتبار للمعطيات أو الحقائق الأساسية و الأكثر تمثيلا لواقع التبليغ تعتبر هي الحتمية المطلقة المنشودة.(66)

وهذا ويرجع أول استعمال للمصطلح (Pragmatique linguistiques) إلى الفيلسوف الأمريكي (Charles W.morris) ، و يقصد به كل ما يتعلق بمظاهر استعمال اللغة و خصائصه- المظهر التداولي- أي الحوا فز النفسية للمتكلمين و كذا النماذج الاجتماعية وموضوع الخطاب و غير ذلك، و ذلك في مقابل المظهر التركيبي الذي يعنى بالعلاقة التركيبية الشكلية، و المظهر الدلالي الذي يهتم بالعلاقات القائمة بين مدلول الوحدات اللغوية و الواقع. (66)

و تجدر الإشارة إلى أن نجاح أعمال موريس في الميدان اللساني أحدثت صدى تمثل خصوصا في المظاهر الثلاثة السابقة: التركيبي و الدلالي و التداولي، هذا الأخير الذي ربما شمل المظهرين السابقين ووسعهما، و لذلك قدم كل من (F.Licanati) و (A.M.Diller) تعريفا للتداولية جاء فيه: إن

التداولية تدرس استعمال اللغة من خلال عملية الكلام و السمات المميزة التي يتميز بها النظام اللغوي والتي تظهر قدرتها (أهميتها) الحديثية. (66)

و يقول "إلوار (R.Eluerd) بخصوص تاريخ ظهور التداولية كعلم، إذا كانت مقابلة التواريخ يمكن أن تعطي بعض المصداقية للفكرة التي تذهب إلى أن النحو التداولي لتشو مسكي المولود بتاريخ 1928 يوالي البنوية المستوحاة من أعمال دي سوسير (1857-1913) فإن هذا الرأي نفسه يحتاج إلى من يدعم الرأي الآخر القائل بأن آخر سليل (خلف) لعلم اللسان يسمي Pragmatique و في الواقع فإن للـ Pragmatique العمر نفسه لعلم اللسان. (66)

أما في اللغة العربية فإن أول من اقترح مصطلح التداولية كمقابل لـ Pragmatique هوالأستاذ طه عبد الرحمن ، و قد تبناه "أحمد المتوكل" و استعمله فلقي استحسان المختصين الذين تداولوه في محاضراتهم وكتاباتهم.

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن "عبد الرحمن الحاج صالح" استعمل مصطلح "الاستعمال" كمقابل لـ Pragmatique .

وبالنسبة للدراسات اللغوية العربية، فإن البحث في التداولية كموضوع ناضج لم يعثر عليه في الدراسات اللغوية سواء التراثية أو الحديثة ، لكن هناك كثيرا من المصادر العربية التي تناولت مادة تعتبر من صميم الدراسات التداولية، إن لم نقل إنها ربما تتجاوز ما تطرحه الدراسات التداولية الغربية الحديثة، و من أهم هذه المصادر نذكر: "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، و "البيان والتبيين" للجاحظ و " الخصائص" لابن جني و " التفسير الكبير" لفجر الدين الرازي و " الكشاف" للزمخشري و"مفتاح العلوم" للسكاكي" وبصفة خاصة كتب الأصول و منها على الأخص أصول السرخسي و"الرسالة" للشافعي . هذه المصادر المذكورة قد تناولت عددا من الرسائل الهامة في مجال التداولية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يرى "ابن خلدون" أن امتلاك اللغة يجب أن يكون لغاية الإبانة و الإفهام و هو هدف التداولية الغربية. قال : " اعلم أن اللغات ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني و جودتها و قصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، و ليس ذلك بالنظر إلى المفردات و إنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصورة و مراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسَّامع و هذا هو معنى البلاغة....." (57)

أما عن أهم ما ورد في هذا النص من مقولات تداولية فيمكن صياغته في النقاط التالية:

الملكة اللغوية- الجودة و القصور- التعبير عن المعاني المقصودة-مراعاة التأليف مقتضى الحال – التبليغ – الغاية من إفادة المقصود للسامع- البلاغة.

و ربما اختزلت هذه القيم التداولية بمفهومها المعاصر في: الأداء، الكفاءة، القصد، التركيب، السياق، المتلقي، الإبلاغية و غيرها.

2.6.2. تطور اللسانيات التداولية

يشمل امتداد مجال اللسانيات التداولية و مشاغلها دراسة المفاهيم الأساسية التالية:

حكم الحديث، و الافتراض المسبق، و التفاعل و الحوار.

1.2.6.2. حكم الحديث لـ غرايس (Paul grice)

لقد اقترح غرايس مفهوما يمكنه أن ينظم التواصل بين الأفراد و نقصد بذلك " مفهوم التعاون" ، حيث افترض هذا الأخير أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون ، فالمشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية و متعاونة لتسيير تأويل أقواله. (65)

يشرح غرايس هذا المبدأ مقترحا أربع قواعد متفرعة منه ، من المفترض أن يحترمها المتخاطبون ويشغلوها، و هي :

1 -قاعدة الكم : التي تفرض أن تتضامن مساهمة المتكلم حدا من المعلومات يعادل ما هو ضروري في المقام و لا يزيد عليه. (65)أي أن يجعل المتكلم مساهمته في الحديث إخبارية بالقدر الذي يقتضيه هدف هذا الحديث، بشرط أن لا يجعلها إخبارية أكثر مما هو مطلوب.
2 -قاعدة النوع: التي تفرض نزاهة القائل الذي ينبغي أن لا يكذب و أن يملك الحجج الكافية لإثبات ما يثبته. (65)
3 -قاعدة العلاقات أو (المنسبات) : التي تفرض أن يكون حديثنا داخل الموضوع (ذا علاقة بأقوال المتكلم السابقة و أقوال الآخرين) .
4 -قاعدة الكيف: التي تعني أن نعبر بوضوح وبلا لبس قدر الإمكان و نقدم المعلومات بترتيب مفهوم كمراعاة الترتيب الزمني عندما نروي سلسلة من الأحداث . لكن ياترى ماذا يحصل لو لم يحترم أحد المشاركين قاعدة من هذه القواعد ؟ بإمكاني

اختراق قاعدة على كره مني، ذلك أني إن لم أوفر كمية المعلومات التي يتطلبها مني مقتضى الحال أو الطرف الآخر، فإنما يكون ذلك بقصد احترام قاعدة أخرى كقاعدة الإخلاص مثلا. يرى غريس بأنه من المفروض أن يحترم كل متكلم مبادئ الحديث و من ثم تطبيقها، و هذا الوجه يتيح فسحة من التسامح، غير أن بعض اللسانيين يرون بأن هذه القواعد غير قادرة على تفسير كل شيء ،لاسيما وأن الأطراف

لا يتوفرون على نفس الحاجات التبليغية و فضلا عل ى هذا فإنهم يستخدمون أشكالا لغوية مختلفة أو قليلة التجانس. (61)

2.2.6.2. مفهوم الافتراض المسبق

ينطلق أصحاب نظرية التواصل من المعطيات الأساسية التي تنتقل من المتكلم إلى المتلقي ، و يفترض أن تكون معروفة ، و لكنها غير صريحة عند المتحدّثين، و تشكل ما يدعى بالخلفية التواصلية و الضرورية لنجاحه، خلفية متضمَّنة في القول ذاته، تقول " أركيوني:" هو تلك المعلومات التي لم يفصح عنها، فإنها و بطريقة آلية مدرجة في القول الذي يتضمَّنها أصلا بغض النظر عن خصوصيته". (34)

من الممكن وصف الافتراضات المسبقة على أنها أفعال كلامية افتراضية (Actes de parole préposition) ، فهي في نفس درجة الأمر و الاستفهام....فلو تلفَّظنا بـ " أغلق فمك" فلا بد أن يكون له تأثير على المستمع (المخاطَب)، و لهذا الأخير القدرة على الطاعة و تأويل القول، بمعنى إغلاق الفم الذي هو مفتوحا مسبقا، و لا تسندُ الأمر إلا لمن وجد في وضع يسمح له بإصدار الأوامر .

3.2.6.2. قاعدة التفاعل

لئن ركز دعاة نظرية أفعال الكلام أبحاثهم حول شروط إنجاز هذه الأفعال و تصنيفها، فقد تبين بعد ذلك أنه من الضروري توسيع مجالها، بحيث تشمل التفاعل و الحوار. وراء الصيغة الفلسفية، للتفاعل يجب

في إطار التداولية الاحتفال بالعوامل اللسانية قبل كل شيء . فعندما يتفاعل شخصان، فإنهما يقيمان بينهما علاقة و يتبادلان المعلومات ، و يجري تبليغ أو التواصل في ذات الوقت على مستويين:

المستوى العلائقي، البارز من خلال النبر و الحركة و الإيماءة.

و مستوى المحتوى، الذي يتعلق بالمعلومات الفكرية و المعرفة المجردة. (66)

ويتعلق الأمر في الحالة الأولى بالتبليغ القياسي ، في حين يتعلق الأمر في الحالة الثانية بالتبليغ المدعو " الإطرادي" .

إن هذه الاعتبارات العامة حول مبدأ التفاعل، تجعل من المظهر العيني الذي هو الحوار مكون التبليغ الأساسي. (66)

4.2.6.2. البنية الحوارية

لقد أخذت إشكالية الحوار تستثير اهتمام الدارسين منذ ثلاثين سنة ، و هناك عدة مدارس ذوات توجهات متعددة، تعنى بهذه القضية ، فعل سبيل المثال:

- النزعة الأتنو ميتودولوجية Ethnométhodologie : تلح على تحليل الحديث و كذا الإستراتيجيات التي يعتمدها المتكلمون .
- الأتنوغرافيون Ethnographes : يهتمون بمفهوم الملكة التبليغية (Compétence Communication) باعتبارها مجموع المعرفة الثقافية التي يمتلكها الفرد.
- النزاعات اللسانية الاجتماعية: يقومون بتحليل الأقوال في مختلف مقامات التبليغ بالاعتماد على الوظائف اللغوية المحصورة من قبل " بوهلر" و ياكبسون .(68)

و أخيرا فإن علم الاجتماع يشارك هو الآخر بتصبيب لا يستهان به و ذلك من خلال الأعمال " قوفمان" (Goffman) حول التفاعل الذي يحصل وجها لوجه face-à-face ، و ذلك في الحالات التي يكون فيها هم المتفاعلين (المتخاطبين) هو الحافظ على هيمنتهم و كذا الحافظ على "سمعة" المخاطَب. (68)

إنه لمن الأهمية بمكان في كل بحث تداولي الاحتفال بالحوار بوصفة بنية كبرى و الفعل اللغوي بوصفه بنية صغري لأن الأمر كما صوَّره، فرنسيس جاك F.Jacques حين قال: " إذا شكل الخطاب الذي يفوق الجملة، إنما يتحدد كل قول فيه في بنية دلالية حقيقية بتسوية المعنى و القيمة المرجعية في تسلسلها بواسطة القواعد التداولية ...". (68)

3.6.2. التداولية و علاقتها بالتخصصات الأخرى

تشهد التداولية، التي هي آخر منهج نقدي في تحليل الخطاب ما بعد الحداثة، تمخض عن اللسانيات ، توسعاً على جميع الأصعدة، فهي مسخرة لوصف التناسق النصي، كما يتم تسخير أحد مكوناتها لإدماجه في التحليل النصي، و ذلك على نحو من السرعة، و لاشك أن التداولية ستغزو المجالات السيميائية الأخرى ، و أنه بإمكاننا أن نستشف في كل هذا أمارة دالة على كون سيميائيات السينما وسيميائيات المسرح ، أضحت تعنى الآن بالتدابير التي يسخرها القول و الحوار ، و الضمانة لموضع التفرج أكثر من اعتنائها بالتحليل الداخلي للمحتويات الفيلمية و المسرحية .

و هذه الطفرة العجيبة من شأنها أن تجعل التداولية تنفتح على التخصصات الأخرى المجاورة، كالعلم الاجتماع و علم النفس...

هذا و تشهد الأبحاث اللسانية في زمننا هذا انتقال مركز الاهتمام من الجملة إلى الحوار، و تقع هذه التوجهات على عدة مستويات:

- نظام و مبنى الحوار
- نمذجة Typologie الحوارات (المحاجّة، الخبر،الطاولات المستديرة، الدروس، إلقاء الكلمات ...الخ)
- حكم Modalité التفاعل (اليومي، القانوني، الديني، العلمي) (68)

و من جهة أخرى فإن اللسانيات الاجتماعية التي ظهرت كرد فعل على اللسانيات التي تجاهلت المكون الاجتماعي للغة، قد عنيت أولا بمشاكل اللغة بوصفها وضعا يناسب طبقات اجتماعية كما اقترحت توسيع حقلها:

- دراسات أفعال الكلام حسب الطبقات الاجتماعية (الأفعال المباشرة و الأفعال الغير المباشرة)

- دراسات أفعال الكلام و التأديات المختلفة في اللغات (التحليل التفاضلي،التقابلي للغات)

و في الطبقات الاجتماعية (تحليل داخل اللغة الواحدة) (68)

إن اللسانيات التفاضلية (التقابلية) التي كانت تعنى أساسا بالقضايا الصوتية و الفونولوجية والتركيبية و المعجمية ، قد اكتسب مجالها بعد أكبر.

أما المسلمة التي تسير على هديها أبحاثها فإنها تكمن في أنّ أهمية الفارق بين معنى القول ووظيفته التبليغية هو الذي يوفر الدلالة الحقيقية (الدقيقة).

و هذا الفرق مرده إلى العوامل الثقافية قبل كل شيء، و اللسانيات التفاضلية لا يمكنها إن هي قصرت موضوعها على دراسة أخطاء الشكل تفسير أو توقع الأخطاء ، كما لا يمكنها الاهتداء إلى العلاج الشافي و يجب عليها إدماج المعطيات التداولية كما ألح على ذلك (ف . كولماس Coulmas) "، يجب عليها -أي اللسانيات التفاضلية- أن تدرس مختلف العلاقات القائمة بين اللغات من حيث الشكل (أو الصورة) و الوظيفة . أما الوظيفة فتعني في هذه الحالة تأديات أفعال الكلام، أما الصورة فتعني المحددات البنوية لمميزات النشاط " (68)

لكن الظاهر أن التداولية قد أحدثت الأثر الكبير في صناعة التعليم سواء تعلق الأمر بتعليم اللغة الأم أو اللغات الأجنبية.

إن صناعة التعليم للجيل الثالث بعد قطيعتها مع المناهج التي لم تؤت ثمارها قد أخذت تعنى بالمتعلم و مقام التبليغ، أي تزويد المتعلم أو المتعلمين بالأدوات التي تمكنهم من التحرك بواسطة الكلام تحركا يلاءم المقام و المقاصد المراد تحقيقها، كما أن المسعى لم يعد يتعلق بتلقين بنية نحوية معينة، بل إنه يتعلق بتوفير الوسائل اللسانية، التي تمكن المتعلم من إجراء اختيار بين مختلف الأقوال و ذلك بحسب المقام (66)

فإن اعتراف المرء بالجميل لطرف ما معناه إجراء فرز داخل سلسلة من التأديات و الانتباه إلى ردود فعل الطرف المقابل، و بالإضافة إلى هذا لا بد من وضع هذه الأقوال في إطار تقابلي، و ذلك لتمكين المتكلم من متابعة جريان التبادل في مختلف أطواره.

4.6.2. مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي

1.4.62. مفهوم المنهج التداولي

المنهج التداولي هو مستوى تصنيف إجرائي في الدراسات اللغوية يتجاوز دراسة المستوى الدلالي و يبحث في علاقة العلامات اللغوية بمؤوليها مما يبرز أهمية دراسة اللغة عند استعمالها، و بالتالي فإنه يعنى بدراسة مقاصد المرسل، و كيف يستطيع هذا الأخير أن يبلغها في مستوى دلالة المقول الحرفية.

كما يعنى المنهج التداولي بكيفية توظيف المرسل للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين، حتى يجعل إنجازه ملائما لذلك السياق و ذلك بربط إنجازه اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه، و منها ما هو مكوّن ذاتي، مثل: مقاصد المتكلم، و معتقداته، و كذلك اهتماماته و رغباته، و منها أيضا المكونات الموضوعية، أي الوقائع الخارجية، مثل : زمن القول و مكانه، و كذلك العلاقة بين طرفي الخطاب. (34)

و تسهم هذه العناصر في تحديد الدلالة عند المرسل إليه، إذ يعتمد عليها في تأويل الخطاب و فهم مقاصده، و بهذا فإن المنهج التداولي يعين على دراسة ما يعنيه الخطاب في سياق معين، كما يعين على معرفة أثر السياق في لغة الخطاب عند إنتاجه. يتضح ذلك عند فحص خُطب العرب في مختلف العصور، بالإضافة إلى كثير من النصوص الحديثة التي تعالج القضايا المعاصرة، سواء في الأعمدة الصحفية أو الحوارات المسجلة أو الخطابات العادية، و لا يضير كونها تتنوع بين خطاب طفل و خطاب شيخ، امرأة و رجل، سياسي و رجل بسيط، حاكم و محكوم، عسكري و مدني، كما لا يضير تنوعها زمنيا بين خطاب قديم يمثله الشعر الجاهلي و الخطبة الإسلامية، و بين خطاب حديث في الصحيفة أو الإذاعة أو في الشارع، بين خطاب مكتوب و آخر شفهي، فذلك التنوع هو الدليل على كلية (استراتيجيات الخطاب) في الكفاءة التداولية من جهة، أي وجودها عند مختلف الفئات، و هو دليل كذلك على عموميتها الزمنية من جهة أخرى. (34)

2.4.62. مفهوم اللغة في ضوء المنهج التداولي

إنه منذ "سوسير" لم يطرأ أي تغيير في تقسيم الحقيقة اللغوية، و أخذ الكلام بعين الاعتبار، يعني النظر إلى اللغة من خلال علاقتها بالذات و العالم، أي اللغة في حركة متحولة إلى خطاب، الحركة التي أهملها التيار البنيوي لمدة ليست بالقصيرة، مركزا على اللسان باعتباره مجموعة من البنى التي تربطها علاقات، في حين أهمل الكلام باعتباره إياه عنصرا ثانويا عريضا.

و مع التصور الجديد للظاهرة اللغوية التي تجلت معالمه في عدة نظريات حديثة منها التداول (Pragmatique) و بالأخص التلفظ (L'énonciation) أولت العناية لبعض العناصر التي تشكل أساس الخطاب ، فقد أحدثت اضطرابا في تصور التواصل البشري، بالمنظور السوسوري ، و كنتيجة أولية لم يعد الكلام ذلك العنصر المهمل و الثانوي و لكن أساسا و مبدأ لتحليل الخطاب (L'analyse du Discours) (34)

لقد حدد المنهج التداولي الجديد مفاهيم من مثل أن:

-القول ليس ذا محتوى فحسب بل إنه ذو مقصد، وفضلا على هذا فهو أداة اتصال بين أطراف التبليغ، كما أن القول فعل داخل مجرى النشاط، و كل فعل يغير حالة العلاقات القائمة بين أطراف الحديث و الموجودة من قبل. (66)

-لقد تطرق المنهج التداولي إلى اللغة بوصفها ظاهرة خطابية و تواصلية و اجتماعية في آن معا، و جعلها في مركز القوة و الفاعلية (أي أنها في ماهيتها الحقيقية تساوي الاستعمال)

-إن اللغة في منظور المنهج التداولي ليست بثابتة أو مستقرة في أذهان الجماعة اللغوية، و لكنها نشاطا كلاميا أو فعالية كلامية.

و في هذا النشاط تتحدد نقطتان:

- التلفظ (Enonciation)، الفعل ذاته الذي ينتج عنه الكلام، و الملفوظ (Enoncé) كنتيجة لذلك الفعل، فلا يعدو لتلفظ أو حديث أن يمثل النشاط الكلامي الذي يؤديه المتكلم في اللحظة التي يتحدث فيها، أي تلك الممارسة التي ينسبها لذاته متفاعلا مع الآخر، كما يتحدد التلفظ بتحديد العناصر المنتمية إلى اللغة و تتغير دلالتها من كلام لآخر مثل : أنا، أنت، هنا، الآن.....(34)

إن عملية التلفظ تعني الوقوف عند عناصر، مثل المبهمات (Déictiques) كعلامات تشير إلى المتخاطبين (Les interlocuteurs) المتكلم الذي يدخل كطرف في العملية التلفظية، أما المستمع كطرف ثان فيصبح متكلما بفضل الخاصية التناظرية للخطاب، و بتوافر الشروط أو الظروف التي تتحقق ضمنها العملية التلفظية، و هي الزمان و المكان، و بالاستناد إلى بعض الآليات المنظمة للخطاب من افتراض مسبق، و أقوال مضمرة و احتجاج، و تأويل، و شرح....، و التي يلجئ إليها المتكلم عندما يأخذ الكلمة مُعلنا عن مرتبته كمتكلم. (34)

أما البحث عن المرجعية في التلفظ فتحيلنا إلى المتكلم و ما يحيط به من أحوال بحيث يتجلى المتكلم حينما يكون فاعلا في الخطاب مع توفر علاقة بينه و بين المخاطَب.

إن المنهج التداولي ينطق من فكرة جريان الكلام على الألسن ، أي من اللفظ ذاته كعملية خاصة بالفرد، و التي تتجلى في ممارسته للغة إلى هدف إيصال الرسالة أو الخطاب، و التأثير عليه ضمن عنصر التفاعلية (L'interaction) (34)

فالتلفظ إذن أساس التداولية في الشكل الظاهري، إذ بدون الأولى لا تتحدد الثانية كعملية، و كلتا العمليتين تخضعان إلى عامل السياق، يقول محمد خطابي: " إنه كلما توفر المتلقي على معلومات عن هذه المكونات (المتكلم، المتلقي للرسالة، الزمان و المكان، و نوع الرسالة) تكون له حُظوظ قوية لفهم الرسالة، و تأويليها أي وضعها في سياق معين من أجل أن يكون لديها معنى" (62)

إن التلفظ يعنى افتراض متكلم يخاطب شخصا آخر (و هو ما يشكل قطبي التواصل بمفهوم "سوسير") يقول أحد الباحثين:" إنه لكي تتحقق السيرورة اللسانية، و يحقق التحادث فعاليته لا بد من وجود اتصال يمثل قناة طبيعية، و ارتباطا نفسيا بين المرسل و المرسل إليه، هذا الاتصال الذي يسمح ببث الخطاب و إبقائه متواصلا" (63)

أما التواصل اللغوي فيقف على ما توفره اللغة من قواعد و قوانين صرفية، صوتية، تركيبية.... لكنها تظل غامضة ما لم تدرج في السياق العنصر ، الذي يعد شرطا أساسيا في عملية التخاطب، حسب "جريماس Greimas " . (34)

و عليه فإن اللغة تمارس في ظل مسار اتصالي تداولي مضبوط بقواعد و قوانين، يشمل كل من المتكلم و المخاطَب، و ما دار بينهما من حديث (كلمات أو مفردات) ، أو إشارات ملامحية أو يدوية.

خـــاتمــة

و ختامًا لهذا البحث الشاق و الممتع في الوقت نفسه ، أصل إلى القول أننا حاولنا من خلال هذا البحث تسليط الضوء على أهم المناهج التي سطع ت في سماء الدراسات اللغوية القديمة و الحديثة و أقصد بذلك:

1 - المنهج التاريخي
2 - المنهج المقارن
3 - المنهج البنيوي الوصفي
4 - المنهج الإحصائي
5 - المنهج الوظيفي
6 - المنهج التوليدي التحويلي
7 - المنهج السيميائي
8 - المنهج التداولي

وقد تناول هذا البحث تلك المناهج بالدرس و التحليل من خلال عرضنا لمفهوم كل منهج على حدة و تحديد أهم أسسه و مبادئه و خطواته.

و ثبتنا القول من وراء كل هذا أن المادة اللغوية هي الجسم الذي تتعاور المناهج اللغوية، بإمكاناتها المتعددة، للكشف عن حقيقته، فما قد يراه الباحث من خلال منهج معين، يكلمه أو يصححه ما قد يراه من جانب آخر من رؤية منهج آخر، و هكذا كانت الظاهرة اللغوية -في منظورنا- تشبه بعض الأشكال في الطبيعة، إنها كالمكعب المتعدد الزوايا لا يكفي لوصفه أن يسلط عليه الضوء من نور مصباح واحد، يضيء سطحا واحدا من مساحته و يخفي بدوره أسطحه الأخرى. و هذا الأمر يكشف لنا سر تعدد التعاريف التي تناولت الظاهرة اللغوية من منهج إلى آخر.

إن الهدف الذي سطرناه من خلال بحثنا هذا هو الانطلاق إلى عرض كل منهج على حدة و كشف الزاوية التي نظر بواسطتها إلى اللغة، و من ثمة تحديد مفهوم اللغة في ضوء كل منهج للوصول في الأخير إلى تعريف نحسبه شاملاً للظاهرة اللغوية يحيط بها من كل الزوايا و الأبعاد.

فما هو هذا المفهوم العام و الشامل للغة في ضوء مناهج البحث؟

و لن نجيب عن السؤال، الذي يبدو بسيطًا، بتعريف يحسبه بعضهم جامعًا و مانعًا- أنصار المنهج الوصفي- و نقول:

اللغة هي بنية أو نظام صوتي في المقام الأول، و أن هذه البنية لكي تدرس لا بد أن تحلل إلى مكوناتها الجزئية، بهدف الكشف عن القوانين التنسيقية الترابطية التي يكتسبها الدماغ من المجتمع.

لأن صوغ تعريف علمي شامل للغة، يقتضي النظر إليها من حيث هي نظام، أو بالأحرى نظام من العلامات اللغوية، أو جزءً من العلامات (السميولوجيا) على ما ذهب إليه أنصار المنهج السيميائي، و لكن دون إهمال بقية العناصر الأخرى.

الحقيقة أن اللغة هي في المقام الأول و جدت لأداء وظيفة التبليغ و التواصل بين الأفراد و الشعوب، هي تلك الوسيلة التي استطاع الإنسان بواسطتها تحليل خبراته إلى وحدات ذات دلالة و شكل صوتي هي المونيمات، تقطع بدورها إلى وحدات مميزة متتالية هي الفونيمات، على ما ذهب إليه أنصار المنهج الوظيفي.

و لكن في المقابل ظهر اتجاه آخر رفض قصر اللغة على هذه الوظيفة رغم أهميتها، و قال : " هل اعتبار اللغة وسيلة من وسائل التوصيل يجوز أن يعد تعريفا صادقاً للغة؟.

هل استطاع المنهج الوظيفي مجاوزة كفاية الوصف إلى كفاية التفسير؟

من هذه الأسئلة و أخرى ظهر إلى الوجود المنهج التوليدي التحويلي بقيادة مؤسسة "نوام تشو سكي" ، هذا الأخير نظر إلى اللغة على أنها نتاج عقلي خاص بالجنس البشري و مكون من مكونات العقل الإنساني، و أن الإنسان مزودٌ بقدرة فطرية تمكنه من استعمال اللغة و الإبداع فيها.

لقد نظر هذا المنهج إلى اللغة نظرة ثنائية تجاوز بواسطتها كفاية الوصف إلى كفاية التفسير و التنظير و هما كما ذكرنا :

جانب الأداء اللغوي الفعلي، الذي يتمثل فيما ينطق به الإنسان فعلا، أو الجمل كما هي مستعملة في عملية التواصل – البنية السطحية- و جانب آخر أُطلق عليه اسم البنية العمقية و التي تتمثل في تلك القواعد الضمنية التي تساعد على فهم الكلام السطحي الظاهري و إعطائه التفسير الدلالي.

و من الواضح هنا أن تشو سكي اعتمد في تفسيره للظاهرة اللغوية و تعريفها على مبدأ "الاستبطان" الذي اعتبره الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من التعرف عما هو موجود في عقولنا المعقدة التركيب، و لكنه في المقابل أهمل النظر إلى الظاهرة اللغوية من زوايا أخرى، خاصة ما يتعلق بالمسار الاتصالي الذي تمارس فيه اللغة من المتكلم إلى المخاطب ، و كذا الدوافع النفسية للمخاطبين و ردود فعل المخاطبين.هذه الأمور و أخرى كانت من أهم الدعائم التي يبنى عليها المنهج التداولي.

و مما تقدم نصل إلى القول أن اللغة أكثر ظواهر النشاط الإنساني تعقيدًا و أحوجها إلى البحث و معاودة النظر و بذل الجهد، و يقتضي هذا منا أن نعيد النظر إليها من جميع الزوايا و الأبعاد.

الواقع أن اللغة أكثر من مجموعة أصوات، و أكثر من أن تكون أداة للفكر، أو تعبير عن عاطفة، إنها جزء من كياننا السيكولوجي الروحي، هي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد، و تتناول عددًا من الأمور الأساسية التي تدخل في تركيبها:

1 -ليست اللغة مجرد أصوات، بل إنها أصوات محكومة بنظام من العلامات و الرموز، كالموسيقي والرقص و الإشارات و الإيماءات، بيد أنها من أدق هذه الأنظمة و أكثرها إحكاما.

2 -إن النظام اللغوي يتألف من وحدات (أصغرها الوحدات الصوتية أو الفونيمات التي تألف و حدات أكبر منها هي الوحدات الصرفية أو المونيمات، التي ُتؤلف منها وحدات أكبر هي الجمل" Sentences "و الجمل هي وحدة الكلام الإنساني)، و قواعد ضمنية عميقة تحكم تأليف الوحدات الظاهرة في الكلام الفعلي.

3 -إن اللغة هي أهم وسيلة في الاتصال الإنساني، و لذا فوظيفتها الأساسية هي وظيفة التبليغ و التواصل.

4 -تمارس اللغة في ظل مسار اتصالي تداولي يشمل كلا من (المتكلم، والمخاطَب، أشياء أو أفكار يتكلم عنها، كلمات أو مفردات، إشارات ملمحية أو يدوية).

و للقارئ في ختام هذا البحث أن يطالبنا بتعريف نحسبه شاملاً للظاهرة اللغوية في ضوء مناهج البحث، يمكنه أن يستوفيها حقها من كل الزوايا و الأبعاد فنقول:" اللغة ظاهرة نفسية اجتماعية، ثقافية مكتسبة ، لا ظاهرة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألف من وحدات صوتية لغوية، ومن قواعد ضمنية تحكم تأليف الوحدات الظاهرة في الكلام الفعلي، و بهذا النظام التوميزي اللغوي تستطيع جماعة ما، أن تتفاهم و تتواصل مع الغير، في ظل نشاط اتصالي تداولي".

قائمة المراجع

1- توفيق محمد شاهين ،علم اللغة العام ،(مكتبة وهبة).

2- رمضان عبد التواب,المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي (مكتبة الخانجي ط3، 1417هـ).

3- أبو الحسين أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، حققه وقدم له مصطفى الشويمي (بيروت: المكتبة اللغوية العربية، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، 1964)

4- محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، (دار المعرفة الجامعية، 2000، ط1).

5- جيفري سامبسون، المدارس اللغوية التطور والصراع، ترجمة أحمد نعيم الكراعين، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1993).

6- ابن منظور، لسان العرب، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي (بيروت : دار الجبل ،ج14).

7- محمد عزيز نظمي سالم، المنطق الحديث وفلسفة العلوم ومناهج البحث، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة).

8-الزواوي بغوره، المنهج البنيوي، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، (الجزائر: دار الهدى، ط1، 2001).

9- عمار بوحوش، محمد محمود الذنيبات، مناهج البحث العلمي، وطرق إعداد البحوث (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995).

10- محمد شلبي، المنهجية في التحليل السياسي، (الجزائر: دار هومة، ط5، 2007).

11- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرفون والمناهج اللغوية، (عمان: دار وائل للنشر، ط3، 2002)،

12- ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، (المجلس الأعلى للثقافة، 2000).

13- عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديث، نظم التحكم وقواعد البيانات، (عمان: دار صفاء، ط1، 2002).

14-فاطمة عوض صابرو ميرفت علي خفاجة ،أسس ومبادئ البحث العلمي ،(الإسكندرية: مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية.

15- عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر، في منهج البحث التاريخي ،(الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995).

16- Ferdinand de Saussure, Cours de l'linguistique générale,(Bejaïa :éditions talantikit,2002).

17- رشيد عبد الرحمان ألعبيدي، العربية والبحث اللغوي المعاصر، (بغداد: منشورات المجمع العلمي، 2004).

18- محمد عبيدات ، محمد أبو نصار ، منهجية البحث العلمي –القواعد و المراحل و التطبيقات – (الأردن : دار وائل للنشر).

19- محمد فهمي حجازي، علم اللغة العربية -مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية- ، (الكويت: وكالة المطبوعات).

20- أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيدي ، معجم العين ، تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي بغداد:دار الرشيد ،ج1، ط1، 1980)..

21- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط 4.

22- حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995).

23- أحمد حساني، مباحث في اللسانيات –مبحث ص وتي، دلالي وتركيبي- (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية).

24- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، (الجزائر: ديون المطبوعات الجامعية، ط3، 2002).

25- ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام(المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع).

26- يوسف حامد جابر، البنيوية في النقد العربي المعاصر (مؤسسة اليمامة الصحفية، ط1، 2004).

27- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التحفظ وتداولية الخطاب (جامعة مولود معمري، تيزي وزو: منشورات تحليل الخطاب ، دار الأمل للطباعة والنشر).

28- محمد الشاوش، أهم المدارس اللسانية ، (تونس: منشورات المعهد القومي لعلوم التربية ، مارس 1985).

29- عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية).

30- عبد الوهاب جعفر، البنيوية والوجودية ، (دار المعرفة الجامعية).

31- جان بياجيه، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري، (بيروت: منشورات عويدات، ط4، 1985).

32- كلود ليفي شتروس، الأنثروبولوجيا البنيوية، ترجمة مصطفى صالح (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977، ج1).

33- فرديناند دو سوسير، محاضرات في الألسنة العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، (بيروت: منشورات دار نعمان للثقافة، الفصل الأول 1984).

34- عبد الجليل مرتاض مقارابات أولية في علم اللهجات ،)للنشر و التوزيع الغرب دار: وهران

35- الزواوي بغوره، المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات.

36- سالم قيتوت، فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع، (بيروت: دار الطليعة، ط1، 1986).

37- عبد القادر حليمي، مدخل إلى الإحصاء، (بن عكنون: الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 1993).

38- محمد محمود مهد لي، تطبيقات علم الإحصاء في العلوم الاجتماعية، الجزء الأول، الإحصاء الوصفي، (الإسكندرية: المعهد العالي للخدمة الاجتماعية).

39محمد كلاس، محاضرات في الإحصاء التطبيقي، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993).

40- فاروق يوسف أحمد، مشكلات وحالات في مناهج البحث العلمي، (القاهرة: مكتبة عين شمس، 1978).

41- عبد الرحمان عدس ، مبادئ الإحصاء في التربية وعلم النفس ،(الأردن عمان : دار الفكر لطباعة والنشر والتوزيع،1995، ط6).

42- أحمد حساني ،دراسات في اللسانيات التطبيقية ، حقل تعليمية اللغات ، (الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية) .

43- اندريه ماتيني مبادئ في اللسانيات العامة.

.44- ينظر سليم بابا عمر ، باني عميري .

45 - أحمد حساني ،دراسات في اللسانيات التطبيقية ، حقل تعليمة اللغات .

46 - محمود سليمان ياقوت ،فقه اللغة وعلم اللغة نصوص ودراسات ، (دار المعرفة الجامعية ، 1994).

47- ميشال زكريا ، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية ، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع .

48 عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد عبد المنعم خطابي ،(القاهرة1969 م).

49 ميشال زكريا ، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة .

50 - ابن خلدون ، المقدمة ،(الجزائر : الدار التونسية للنشر و التوزيع ،ط1، 1984).

51 - محمود سليمان ياقوت ،فقه اللغة وعلم اللغة ،نصوص ودراسات..

52 - محمد سالم سعد الله، مملكة النص، التحليل السيميائي للنقد البلاغي، الجرجاني نموذجا، (الأردن :عالم الكتب الحديث، جداول للكتاب العالمي، 2007) .

53- ينظر ابن خلدون ، المقدمة ، 273-275ص ،1984) ،ط 1، الدار التونسية للنشر و التوزيع:الجزائر

54-ميشال ريفيه، جان كلود جيرو، لوي باينيه، جوزيف كورتيس، السيميائية أصولها و قواعدها ، ترجمة رشيد بن مالك ،(الجزائر: منشورات الاختلاف ،2002)،.

55 - عبد الملك مرتاض، إشكالية المصطلح في اللسانيات و السيميائيات –بحث في مفاهيم و مساءلة عن علل الاضطراب ، (لجزائر: مجلة المجمع الجزائري للغة العربية ، العدد الأول ،ربيع الأول ،1426-ماي 2005).

56 -أمبرتو إيكو، العلامة تحليل المفهوم و تاريخه، ترجمة سعيد بنكراد، (بيروت :المركز الثقافي العربي، ط1 ، 2007).

57 - ينظر دالية مرسلي- فرنسوا شو فالدون، مارك بوفات، جان موطيت، مدخل إلى السيميولوجيا (نص-صورة) ترجمة عبد الحميد بورايو، (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية).

58 - آنروبول وجاك موشلال، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس و محمد شيباني (بيروت – لبنان : دار الطليعة للطباعة و النشر).

59 - قويدر شنان ، التداولية في فكر الأنجلو سكسوني، مجلة اللغة و الأدب (الجزائر، قسم اللغة العربية و أدابها ، العدد 17، جانفي 2006).

60 - عبد الملك مرتاض، تداولية اللغة بين الدلالية و السياق، مجلة اللسانيات (الجزائر، مركز البحوث العلمية و التقنية لترقية اللغة العربية، العدد 10، 2005.

61 - ينظر الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية- لطلبة معاهد اللغة العربية و آدابها، -ترجمة محمد يحياتن (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية).

62 - محمد خطابي، لسانيات النص -مدخل إلى انسجام الخطاب - (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، 1991 ط1).

63 - نور الدين السد، تحليل الخطاب - دراسة في النقد العربي الحديث- ، (الجزائر : دار هومة للنشر و التوزيع، ج1 ، 1997).